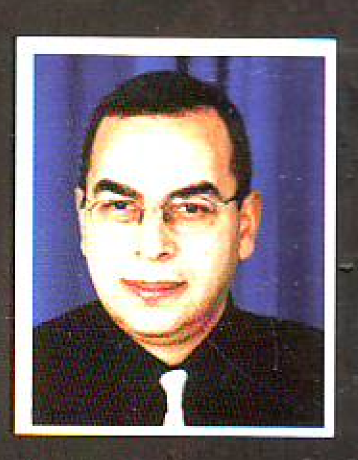

د. أحمد خالد توفيق
عقل
بلا جسد

عقل بلا جسد

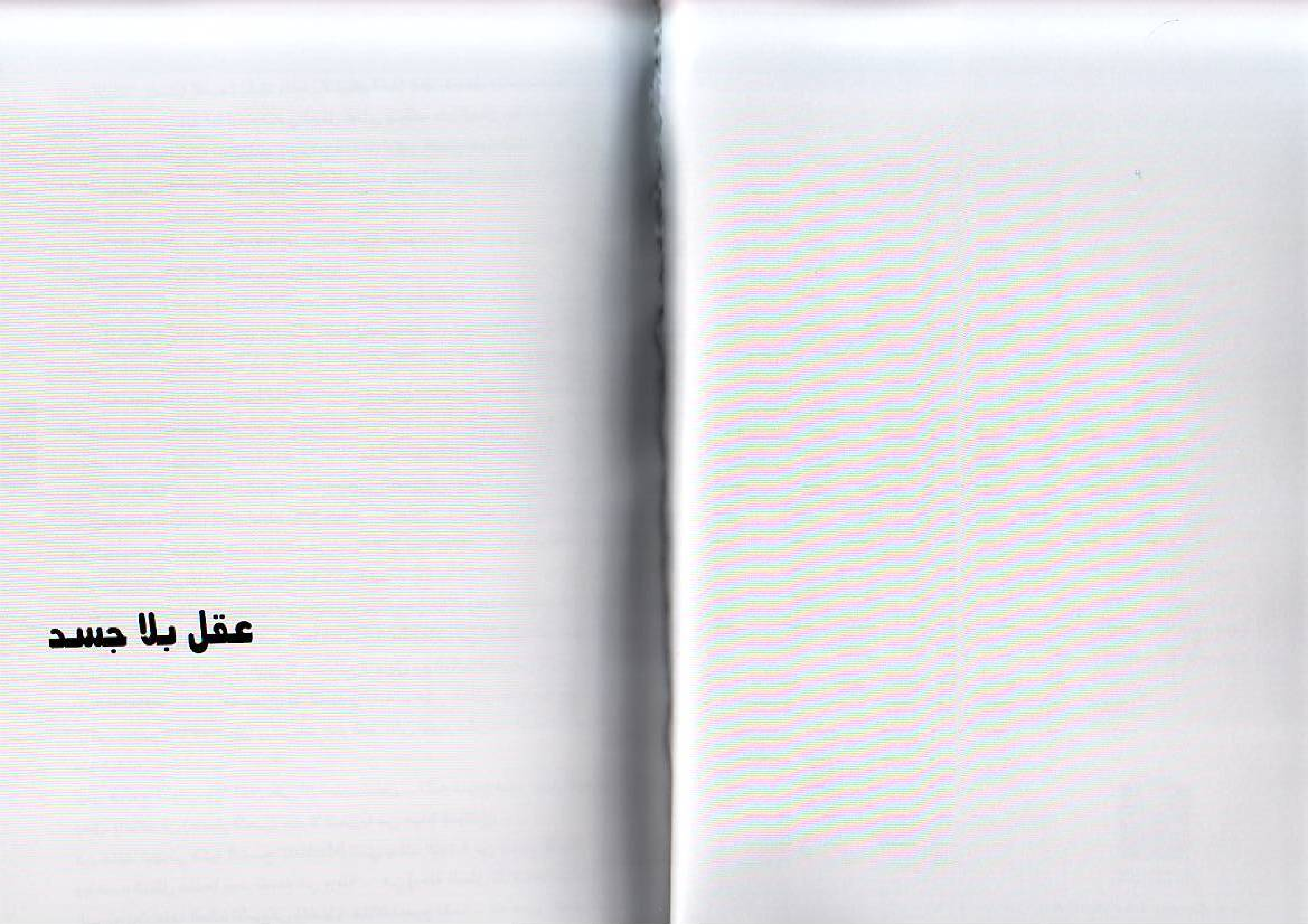


د. أحمد خالد توفيق

هما صديقان .. أحدهما امتلك العضلات والقوة الجسدية، بينما لم يمتلك الآخر إلا العقل .. العقل العبقري القادر على أن يحل أعقد المشاكل في دقائق .. (عصام فتحي) أستاذ الرياضيات حبيس الكرسي المتحرك، ومجموعة من الألغاز الرقمية المحيرة التي يحلها دوماً، مبرهناً على أنه جدير بلقب (رجل الأرقام).. بعض هذه الألغاز يتعلق بجرائم مخيفة، وبعضها يتعلق بمحاولتنا لفهم الآخرين، لكنه في كل مرة يبصر الحقيقة المتوارية وراء الضباب، ويثبت أنه عبقري .. حتى لو كان عقلاً بلا جسد..

الكويت
2008





عقل بلا جسد

«ذكاء الأرقام .. صفة أقدرها بشدة وأدرك أنني لم أحظ قط بقسط مناسب منها .. في المدرسة كانت رؤية أية أرقام تكفي لجعل عقلي يتوقف عن العمل مؤقتًا، تلك الحالة التي تذكرك بتوقف القلب .. وبرغم هذا لم اعتبر نفسي غبيًا قط.. أعتقد أن عقلي كان دومًا أكثر تعلقًا بالحروف والكلمات .. هذه لغته وذلك غذاؤه الذي يقتات به..»

هذا هو المقطع الأول من القصة الأولى من سلسلة عقل بلا جسد، وهو يلخص كل شيء تقريبًا .. لا يوجد فيه شيء من الخيال ..

لم أعرف (عصام فتحي) بالضبط، لكني عرفت من هو قريب منه جدًا، ومن جديد لا دور للخيال في هذا المقطع: «(عصام فتحي) كان يختلف عني في كل شيء .. كانت له تلك الموهبة الرقمية غير العادية، فلم يكن ينسى أي رقم، وكان قادرًا على إجراء أية عملية رياضية بسهولة تامة .. حسدته لفترة وحاولت منافسته . استغرق الأمر عدة سنوات حتى بدأت أرى أن موهبته شيء كأنوفنا وشعورنا وطول قامتنا .. نحن نولد بها وعلينا أن نقبل حقيقة امتلاكها أو افتقارنا إليها.. دعك من أنني كنت أتفوق عليه في نقاط أخرى.. لم يكن يتذوق الشعر أو يفهمه ..لم يستوقفه قط جمال فتاة .. لم يلعب لعبة رياضية في حياته .. الفن الوحيد الذي كان يفهمه نوعًا هو الموسيقا والسبب هو تلك العلاقة الرياضية التي وصفها (فيثاغورس) يومًا ما .. وكما كان يقول لي: (الموسيقا معادلات مسموعة)..»

كانت القدرات العقلية المبهرة للعقل البشري تثير شغفي دومًا، وعندما قرأت عن العالم البريطاني (ستيفن هوكنج Stephen Hawking) في الثمانينات، انبهرت بشدة بفكرة العقل العبقري الذي لا يستطيع التعامل مع العالم الخارجي إلا من فوق مقعد متحرك .. تقريبا لا يحرك إلا أنامله وعينيه .. حتى الكلام يخرج من جهاز خاص، وبرغم هذا هو أستاذ رياضيات وهو قادر على تغيير نظريات أينشتاين عن منشأ الكون ..

ليس هوكنج قدوتي، وإلا لكان علي أن أحلم بالشلل .. لكنه نموذج مبهر يدير الرءوس بحق، وأعتقد أن (عصام فتحي) جاء لا شعوريًا من عباءة (هوكنج) ..

من جديد تبهرني فكرة الناصح Mentor الذي يملك الإجابة عن جميع الأسئلة، ويقصده البطل عندما يجد نفسه في ورطة .. في (رحلة البطل Monomyth) التي تحدث عنها العالم الأمريكي (كامبل)، هناك ناصح دائمًا .. إنه مدير المخابرات

في قصص جيمس بوند. وهو (جاندولف) في سيد الخواتم، وهو (الحلق العميق) في أفلام المخابرات الأمريكية ..

من الصعب أن تجد الناصح من حولك .. هكذا تضطر لصناعة واحد على الورق .. ومن جديد نجد أن عصام فتحي مزيج من البطل وناصح البطل ..

أما البطل – الذي ليس بطلاً في الواقع – فشخصية ذات ذكاء عادي .. طيب القلب .. مخلص .. إنه هاستنجز صديق بوارو أو واتسون صديق هولمز .. مهمته أن يقع في المآزق ثم يطلب العون، ثم يصغي منبهرًا .. وقد رأيت أن يكون ضابطًا بالطبع، ليس لأنني أعتبر الضباط أقل ذكاء من أساتذة الرياضيات، لكن لأنه بهذا الشكل أقدر على أن يجلب المتاعب معه وأن يواجهها في كل لحظة، كما أنه يملك القوة الجسدية التي تساعد أحيانًا في حسم الأمور ..

هكذا ولدت هذه القصص، وهي مزيج من القصة المسلية والمعلومة الرياضية، التي تقدم لنا درسًا في كيفية استخدام تفكيرنا بدقة وفعالية ، فإن لم تجن منها الفائدتين معًا جنيت واحدة منهما ..

بقي أن أقول إن هذه القصص كانت تنشر مسلسلة كل شهر في مجلة (شباب 20) الصادرة عن دار الصدى في دبي، وقد وافقت الدار على أن أقدم ما نشر منها في كتاب، لذا أوجه لها الشكر الحار ..

هذا هو كل شيء، واترك للقارئ الكريم أن يحكم على هذه التجربة بنفسه، فلا قيمة لرأي الكاتب لأنه – في النهاية – يعتقد أن ما كتبه كان الأفضل وقتها، لذا أتمنى حظًا سعيدًا للقارئ ولي..

د. احمد خالد توفيق



لغز أخير

ذكاء الأرقام .. صفة أقدرها بشدة وأدرك أنني لم أحظ قط بقسط مناسب منها ..

في المدرسة كانت رؤية أية أرقام تكفي لجعل عقلي يتوقف عن العمل مؤقتًا، تلك الحالة التي تذكرك بتوقف القلب .. وبرغم هذا لم اعتبر نفسي غبيًا قط.. أعتقد أن عقلي كان دومًا أكثر تعلقًا بالحروف والكلمات .. هذه لغته وذلك غذاؤه الذي يقتات به..

(عصام فتحي) كان يختلف عني في كل شيء .. كانت له تلك الموهبة الرقمية غير العادية، فلم يكن ينسى أي رقم، وكان قادرًا على إجراء أية عملية رياضية بسهولة تامة ..

حسدته لفترة وحاولت منافسته . استغرق الأمر عدة سنوات حتى بدأت أرى أن موهبته شيء كأنوفنا وشعورنا وطول قامتنا ..

نحن نولد بها وعلينا أن نقبل حقيقة امتلاكها أو افتقارنا إليها.. دعك من أنني كنت أتفوق عليه في نقاط أخرى.. لم يكن يتذوق الشعر أو يفهمه ..لم يستوقفه قط جمال فتاة .. لم يلعب لعبة رياضية في حياته .. الفن الوحيد الذي كان يفهمه نوعًا هو الموسيقا والسبب هو تلك العلاقة الرياضية التي وصفها (فيثاغورس) يومًا ما ..

وكما كان يقول لي: (الموسيقا معادلات مسموعة)..

كان مسارنا محددًا من البداية ..

هو درس الرياضيات وبلغ فيها شأنًا عظيمًا، وأنا صرت .. صرت ضابط شرطة ..!

لا أعرف كيف ولا لماذا لكني كنت مكتمل البنيان قويًا وبدا طريقي مرسومًا أمامي من قبل أن أفكر..

لكن علاقتنا لم تنقطع قط ..

كان يكمل ثغرات عقلي وكنت أكمل ثغرات شخصيته ..

في سن الخامسة والعشرين تزوجت (غادة) التي صارت أم أولادي الثلاثة، أما هو فظل يراقب الحياة من بعيد ولا يدخلها أبدًا ..

وفي سن الثلاثين كان ذلك الحادث .. ألم تسمع عنه ؟.. إن إطار سيارة ينفجر في لحظة بعينها على الطريق السريع يحدد تاريخ حياتك للأبد .. هناك انقلاب السيارة والارتطام بشجرة .. لابد من شجرة دائمًا .. لم يمت لكن ظهره قد تحطم

وتمزق حبله الشوكي ..وهكذا كتب عليه أن يمضي باقي حياته على مقعد متحرك تعنى به والدته، وهي سيدة فاضلة من الطبقة المتوسطة لا تسمح صحتها بالكثير .. لهذا أحضرت له (عفاف) وهي فتاة باسلة من قريباتي قبلت أن تكون مزيجًا من الممرضة والمربية والقارئة والأم ..

بقى أن أقول إنه ما زال يمارس عمله في تدريس الرياضيات وتلاميذه يحبونه حقًا .. يقولون لي إنه عبقري فأهز رأسي.. قولوا لي شيئًا لا أعرفه يا أولاد..

هكذا اتخذت حياتي وحياته هذا المسار الجديد الذي يتكرر مرتين أسبوعيًا..

هو يجلس على كرسيه المتحرك بجسده الواهن ورأسه الهزيل، بينما عيناه تشعان تلك القوة النفسية الكاسحة الثاقبة التي تميز المقعدين .. وأنا اجلس بجواره أحكي له عن مشاكلي، أو آخذه في نزهة هنا أو هناك نتحدث عن صبانا الذي أمضيناه معًا فلم نفترق يومًا واحدًا .. وكنت أتساءل في قلق : ماذا لو اختفى من حياتي ؟.. ماذا لو لم يكن فيها أصلاً ؟.. ما كنت لأكون أنا ..

مع الوقت بدأت أراه كما هو فعلاً: عقل عملاق بلا جسد .. يشبه قصص الخيال العلمي التي يحتفظون فيها بمخ عبقري يسبح في مادة حافظة في وعاء زجاجي.. فلو رأيت الأمر من هذا المنظور لخطر لك أن الحادث لم يكن مأساة .. كان طورًا انتقاليًا حتميًا في حياته يقوده إلى الوصول للشكل الذي خلق من أجله: عقل مجرد لا يشغله شيء آخر ..

لم أجسر طبعًا على مصارحته بهذا وإن كنت أتعمد أن تخلو علاقتي به من أي نوع من الرفق أو التخنث .. ربما كنت أعامله بشيء من الخشونة وكنت أعرف أن هذا يروق له، لأنه لا يمقت شيئًا في الحياة مثل الشفقة .. كان يرى في الشفقة نوعًا خاصًا جدًا من التعالي والاحتقار فنحن لا نشفق إلا على من هم أضعف منا ..

••••••

الحادث الذي حكيته له كان على سبيل تسليته لا أكثر .. فلم أكن مكلفًا بالتحقيق في هذه القضية ..

قلت له: « (عدنان السمدوني) رجل في الخمسين من عمره .. له عدة شركات وعامة هو يمارس ذلك النشاط البشري الغامض الذي يطلق على صاحبه (رجل أعمال).

صفقات .. قروض.. عروض أسعار .. الخ.. لكن لا ينكر أحد أنه شديد الذكاء يتمتع بسرعة بديهة غير عادية .. »

ظل (عصام) ينظر لي وهو يمسك بكوب الشاي الساخن الذي يتصاعد منه الدخان، فقلت له:

«طبعًا أنت خمنت أنه قُتل ..»

ضحك في مكر وقال:

«بالعكس .. سأبهرك أكثر وأقول إنني لن أثب إلى أية استنتاجات قبل سماع القصة كاملة ..»

سررت لهذا لأن جلستنا هذه ذكرتني بجو (شيرلوك هولمز) وصديقه محدود الذكاء (واطسن)، كما ذكرتني بـ (هيركيول بوارو) وصديقه الغبي (هاستنجز).. طبعًا لم أكن ألعب دور (هولمز) ولا (بوارو) هنا بل ألعب دور صديقيهما .. وتوقعت أن يبادر بالاستنتاجات المستفزة كما يفعل (هولمز) في القصص لكنه لم يفعل ..

عدت أقول:

«في ذلك اليوم بقي (عدنان) في الشركة وحده حتى ساعة متأخرة من الليل .. وفي الصباح فتح العامل الباب ليجد (عدنان) جالسًا إلى المكتب كما هي العادة .. المشكلة أن ثقب رصاصة كان في جبهته .. أنا أحاول أن أقدم لك لحم القضية بعد التخلص من العظام والجلد ... سأريحك من تفاصيل البحث المملة وأخبرك أن رجال الشرطة رسموا المشهد كما يلي: هناك من قابل (عدنان) في تلك الليلة وجلس معه حيث لا أحد في الشركة .. لعل الأمر كان يتعلق بدين متأخر أو صفقة يريد الحصول عليها .. الله أعلم بذلك .. ثم تطور الأمر لمشاجرة تحتد شيئًا فشيئًا .. يشعر (عدنان) بقلق فيخط معلومات عن ضيفه على ورقة وهو ما زال جالسًا يتبادل النقاش الحاد معه وينظر في عينيه، وهنا أخرج القاتل مسدسًا .. أطلق النار ثم فر من المكان .. يجب أن أقول إن القاتل بالتأكيد تفحص الورقة التي كانت أمام (عدنان) ليتأكد من أنه لم يكتب اسمه عليها.. فلما اطمأن تركها ورحل .. هذا كل شيء ..»

«لا بصمات ؟»

«بالتأكيد .. لا بصمات .. لا شهود .. مئات الأعداء .. قلت إنني اختصر عليك الطريق»

قال (عصام) باسمًا وهو يرشف الشاي:

«أنت لا تعطيني تفاصيل كثيرة .. لماذا ؟»

قلت له وأنا أخرج ورقة من جيبي:

«لأن مهمتك محددة .. هذه صورة من الورقة التي كانت أمامه عندما قتل .. لدينا كل ما يدعو للظن بأن (عدنان) كتب فيها معلومات عن القاتل ..»

«ولم لا يكون القاتل قد تركها ليضللكم عمدًا ؟»

«الحياة ليست بكل هذا التعقيد .. ثم إن الدماء تناثرت عليها بشكل يوحي بأن القتيل كان يكتب فيها ساعة القتل.. دعك من أننا لم نفهم ما فيها فكيف يضللنا شيء لم نفهمه ؟»

امسك (عصام) بالورقة وتفحصها ..

كانت ورقة عادية من طراز A4 كتب عليها بخط كروكي رديء يوحي بالاستعجال:

(4 3 2 1)
و أ ث أ ؟؟

راح يفكر في عمق .. يمتص الشاي في عمق .. أعرف هذه العلامات المعتادة .. إن تروس عقله تعمل بأقصى طاقتها الآن .. انسكب بعض الشاي الساخن على سرواله فلم يلحظ .. لم تعد لديه أعصاب تحس بالألم لأن كل جهازه العصبي صار يعمل لهدف واحد الآن ..

دخلت (عفاف) الغرفة وسألته عن شيء ما فلم يرد .. أشرت لها من طرف خفي أن تتركه الآن ..

مرت خمس دقائق وهو يرمق الورقة، فقدرت أنه عجز .. لن ألومه على ذلك ..

توقعت أن هذه الحروف نوع من العبث .. كما تكتب أنت كلمات وترسم صناديق وثعابين عندما تصغي باهتمام لمكالمة هاتفية ..

فجأة رفع عينه نحوي وقال:

«هل لديك مشتبه فيهم ؟»

«المئات منهم .. كل رجل أعمال له خصوم كثيرون..»

«هلا قرأت لي أسماء بعضهم ؟»

أخرجت ورقة من جيبي ورحت أقرأ:

«خذ عندك .. (عماد فريد)... (سيد الدلجموني).. (مصطفى القصاص)..(نهلة فوزي) وهي زوجته بالمناسبة .. (أنور حبيب).. (خالد سليم).. (خليل الغرباوي)..... (محمـ .....»

رفع يده مشيرًا لي كي أتوقف .. ثم سأل في شرود:

«هل من اسم آخر يبدأ بالخاء ؟»

نظرت للقائمة ثم هززت رأسي أن لا .. فقال:

«(خالد سليم) .. لابد من أن تضيقوا عليه الخناق !.. إنه هو .. !!»

صحت في غيظ:

«لحظة .. أنت لا تمارس السحر هنا .. لا تحدثني عن حدسك والحاسة السابعة وكل هذا الهراء.. »

هز رأسه ووضع كوب الشاي على المنضدة بجواره وقال:

«لا هذا ولا ذاك .. الفقيد كان شديد الذكاء ثابت الجنان .. كان يريد أن يكتب اسم قاتله لكنه لو فعل ذلك صراحة لانتزع الأخير الورقة وأحرقها .. لذا تظاهر بأنه يخط حروفًا وأرقامًا لا معنى لها على سبيل شرود الذهن .. في البداية وضع أرقام (1 2 3 4).. معنى كلامه هذا أننا بصدد متوالية عددية .. بعد هذا كتب : و – أ – ث – أ. فما معنى هذا ؟»

قلت وأنا لم أتخلص من غيظي:

«لنقل إنه مات بسره ..»

«بل هي متوالية عددية أخرى تعتمد على الحرف الأول من نطق العدد .. واحد .. اثنان .. ثلاثة .. أربعة ... الحروف الأولى هي: و.. أ .. ث .. أ.. ثم ترك لنا علامتي استفهام تقولان بوضوح: ما الحرفان التاليان ؟..

طبعًا الخاء فالسين .. خ .. س... خمسة .. ستة .. (خالد سليم)..»

صحت مندهشًا:

«يا سلام ؟... ولماذا لم يكتب خ .. س ببساطة ؟»

«إذن لرأى القاتل الحرفين ومزق الرسالة .. بينما الصورة الحالية توحي بالهذيان .. »

قلت وأنا أنهض مستفزًا:

«هل تتوقع أن رجلاً يرى مسدسًا مصوبًا إلى رأسه يمكنه ترك رسالة بهذا التعقيد ؟»

«لا أعتقد أنه النها وحي الخاطر .. لابد أنه كان يستخدم هذه الطريقة في أوراقه

من قبل .. ربما هو نوع من الشفرة اعتاد استعمالها وتوقع أن الآخرين سيفهمونها»

«وهو ما لم يحدث..»

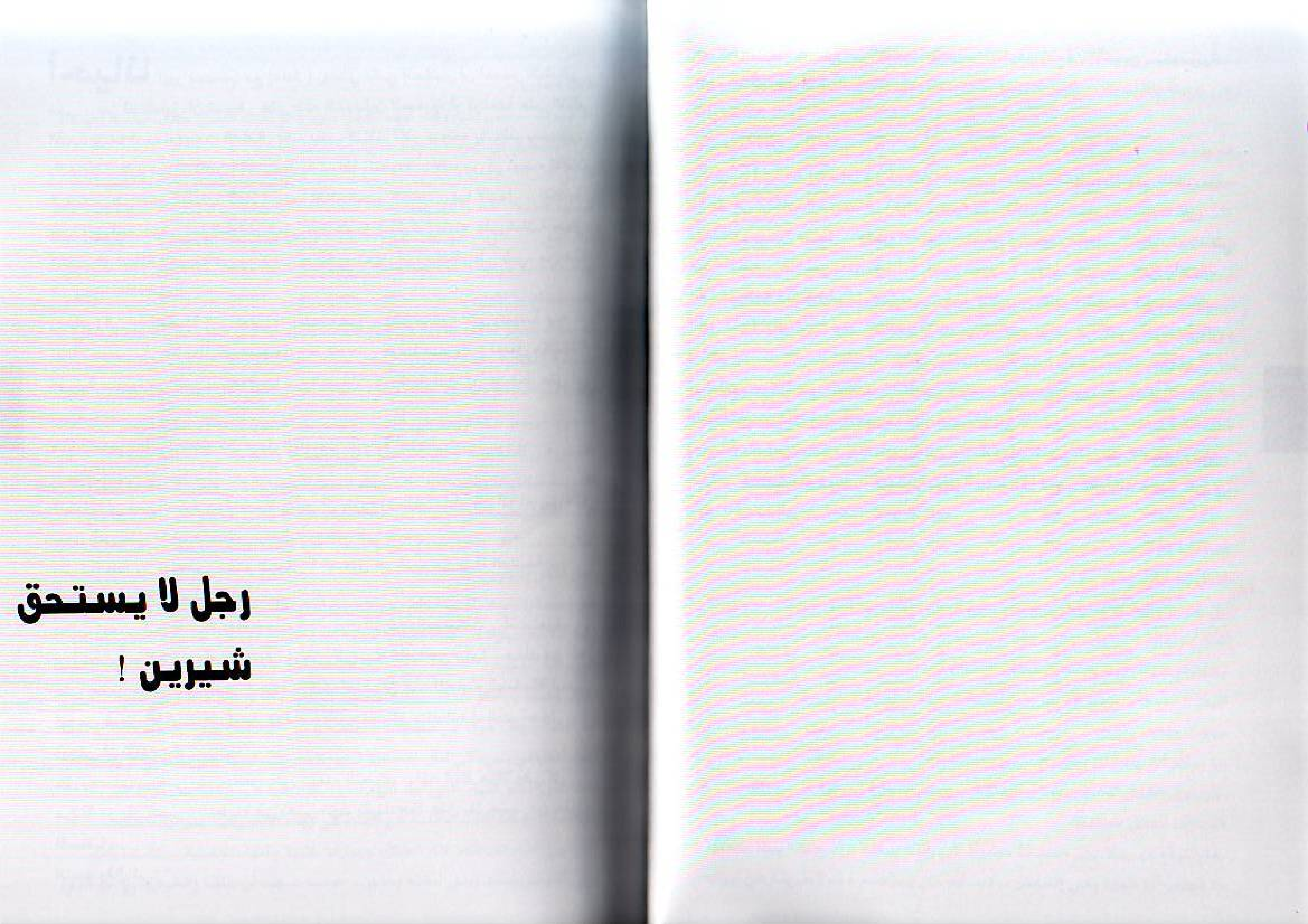
قال باسمًا:

«بل حدث الآن ...!»

والذي لم أخبر به (عصام) هو أن كلامه صحيح تمامًا لأننا قبضنا على القاتل بعد دقائق من ارتكاب الجريمة .. (خالد سليم) هو القاتل الذي جاء يطالب (عدنان) بإعفائه من دين متأخر .. رفض (عدنان) وتشاغل عن ضيفه الغاضب بالشخبطة في ورقة أمامه .. هنا جن جنون (خالد) وأخرج مسدسه ليفرغه في رأس رجل الأعمال القاسي. لقد اعتقلنا القاتل لكن لسبب آخر .. إن من يطلق رصاصة في منتصف الليل أحمق بالتأكيد ، وقد رآه الجيران المذعورون وهو يهبط في الدرج جريًا دون أن ينتظر المصعد .. وعلى باب البناية استوقفته دورية راكبة سمعت صوت الطلقة..

وبالطبع لم يكن على استعداد لإنكار أي شيء .. فقط ظلت هذه الورقة لغزًا حتى اللحظة وحتى حل (عصام) سرها في خمس دقائق ..

(عصام) مصيب تمامًا .. وكالعادة يبرهن على أنه يلتقط تفاصيل لا يلاحظها سواه .. لكني كذلك معجب بـ (عدنان) الذي رأى الموت قادمًا لا محالة، لكنه صمم على ان يترك لنا هذه الورقة ... هذا اللغز الأخير.



رجل لا يستحق شيرين !

أحيانًا أزور (عصام) مع (غادة) زوجتي لكني أتحاشى أن أحضر الأطفال معي .. من المستحيل أن تسيطر على هذه الشياطين الصغيرة أو ترغمها على التزام الأدب، بينما (عصام) يحب الأطفال لكنه يحب النظام أكثر .. ولعه بالنظام يصيبني بالجنون .. لابد من أن تكون الكتب موازية لحافة المنضدة .. لابد من أن توضع الأقلام الرصاص في الكوب وسنها لأعلى، بينما أقلام الحبر الجاف سنها لأسفل .. الكتابة على ورق أنيق أبيض أما الخواطر فعلى ورق لاصق (ستيكر) يثبته على شاشة جهاز الكمبيوتر توطئة لتفريغه في مفكرة .. طبعًا يستحيل أن تحافظ على شيء من هذا في وجود ثلاثة أطفال ..

(عفاف) الشابة الباسلة التي تعنى به تعلمت هذا .. وقد صارت أكثر وسوسة منه .. لهذا تحرص على ألا يظل أي قدح خارج طبقه متى فرغنا منه، وهي تحمل مكنسة كهربية صغيرة من التي يستعملونها في السيارات كي تزيل أي غبار يسقط على أي شيء ..

هذا الحرص على إرضائه كان سهل التفسير بالنسبة لزوجتي ..

«(عفاف) تهيم به حبًا سرًا ..»

قلت لها إن هذه الفكرة حمقاء .. لا يمكن أن يتزوج (عصام) دعك من أنه لم يبق منه سوى رأس على مقعد متحرك .. فقالت زوجتي في خبث:

«قل لها هذا ولا تقله لي .. أنتم الرجال لا تعرفون أي شيء عن المرأة العاشقة ..»

«..وأنت لا تعرفين شيئًا عن (عصام)»

دخلت زوجتي المطبخ مع (عفاف) وسمعت صوت الثرثرة والضحكات .. أنت تعرف أن (عصام) بمثابة أخي لذا تتصرف زوجتي في بيته كأنها في بيتها .. دعك من أنه على مقعد متحرك ومحدود الحركة .. كنت أعرف أن هذه المحادثة الضاحكة ليس لها من غرض إلا استنزاف أسرار (عفاف) والبرهنة على ذلك الحب الذي تحاول زوجتي أن تؤكده ..

ظل (عصام) يرمقني وهو جالس على مقعده المتحرك .. لقد ازداد هزالاً وفي كل مرة أشعر بأن الصورة المنطبعة في ذهني تزداد يقينًا: هذا عقل بلا جسد من عقول المستقبل..

ابتسم وقال لي:

«..هل أنت سعيد في زواجك ؟»

قلت مفكرًا:

«لا أعرف .. ليس لدي وقت كاف لأفكر .. زواج ثم ثلاثة أطفال خلال خمسة أعوام .. من المستحيل أن أعرف إلا بعد ما يتزوج أصغرهم ..»

«لنقل السؤال بطريقة أخرى: هل يبعث فيك الزواج ذات المشاعر الملتهبة التي كانت تبعثها قصص الحب القديمة ؟»

«بالطبع لا .. الزواج هو دفء هادئ منتظم، بينما القصص القديمة كانت نارًا ..»

ونظرت عبر فرجة الباب لأتأكد من أن المدام لا تقف هناك وقد تحولت إلى شيطان بعد سماع ما أقول ..

ثم بدأت أتذكر .. وقفت ووجهي إلى النافذة المفتوحة التي تطل على ملعب كرة في مدرسة إعدادية .. هناك صبية يتصارعون حتى الموت على كرة بينما واحد منهم يلعب دور الحكم ويصفر بلا انقطاع .. هذا المشهد أزال ركام الأعوام عن ذاكرتي فصرت بينهم .. أحاورهم في اللعب وأطلب من (هاني) أن يمرر الكرة لي .. أرى نفسي في الخامسة عشرة مراهقًا قوي البنية لا يرحم جسده لحظة واحدة .. المدرسة المشتركة و(شيرين).. الحسناء المخملية الغامضة .. كنت أقتل نفسي في الألعاب الرياضية من أجلها، ثم أعود للبيت منهكًا فأقتل نفسي في الدراسة من أجلها .. فقط لو تنظر نحوي مرة واحدة .. مرة واحدة فقط بعدها أموت ...

«هل تذكر (شيرين) ؟»

هز (عصام) رأسه باسمًا .. لم يكن ممن يبالون بالفتيات قط .. دعك من أنه لم يشاركنا أية مباراة في ذلك الزمن عندما كانت قدماه تعملان .. لكنه كان يذكر كل شيء لذا غمغم:

«كنت تحبها .. أذكر هذا .. وكانت شديدة الذكاء .. لم أر قط فتاة أذكى منها .. حتى أنا كنت أرتجف خوفًا من ذكائها الشديد»

كنت أفعل أي شيء كي أنال إعجابها لكنها ظلت تلك الملكة المتوجة التي لا يجسر أحد على الدنو منها، حتى جاء اليوم الذي يفقد فيه المرء إرادته وسيطرته على عواطفه .. هكذا كانت جالسة في الفناء في وقت الانصراف على ذلك المقعد الخشبي الذي تساقط عنه الطلاء، وجوارها كتبها وآلتها الحاسبة .. كانت تراجع درس اللوغاريتمات الذي أمقته بجنون.. عندما عرفت أن عالمنا (الخوارزمي) هو الذي

ابتكر هذا العلم حزنت كثيرًا .. كنت أعتقد أن مبتكر هذا العلم من أعداء العرب !

جلست بقربها فنظرت لي في دهشة ثم همست:

«بالله عليك !... الكل يرانا !...»

قلت لها كل شيء .. حكيت لها عن الساعات التي أقضيها في البيت محاولاً الدراسة لكن وجهها يقتحم كل كتاب علي فلا أعي شيئًا .. حكيت لها عن الكدمات التي تملأ جسدي من فرط التدريبات الرياضية .. أنا أفعل كل شيء كي أستحقها ..

قالت دون أن تنظر لي:

«أنت شاب ممتاز، لكنك لا تعنى بعقلك العناية التي يلقاها جسدك .. إن احتمال أن أرى عنقاء تحلق فوق المدرسة أقوى من احتمال أن أراك تمسك كتابًا »

«سأحاول أن أفعل العكس .. صدقيني .. فقط قوليها.. قولي إنك ستحاولين أن تحبيني ...»

قالت في دلال:

«لا يمكن أن أقول شيئًا بينما الجميع يراقبني ..»

ثم تناولت الآلة الحاسبة وراحت تدق على مفاتيحها .. أتذكر الآن أنها كانت تردد الأرقام وهي تضغط عليها .. أربعة من عشرة مقسومة على مائتين .. أربعة من عشرة مقسومة على مائتين ..

نهضت محبطًا وانصرفت .. إن هذه الفتاة تسخر مني .. لا يمكن أن تنهمك بكتابة فروضها بينما شاب يصارحها بحبه .. شاب له طول وعرض وارتفاع وكرامة .. وعدت لداري محنقًا ورسمت آلاف المشاريع الوهمية بدءًا بقتل نفسي وانتهاء بقتل الجميع .. عند المساء عدلت عن هذا وقررت أن أكون من قراصنة الكاريبي أو اذهب إلى جنوب أفريقيا لأعمل في المناجم حتى أموت ..

لكني كنت واقعًا في قبضة ذلك الحب .. وكانت أغاني عبد الحليم حافظ تجعلني عبدًا لا يرغب في التحرر .. (بتلوموني ليه ؟.. لو شفتم عنيه ..حلوين قد إيه ؟)

هكذا قدمت اقتراحي لها مرة أخرى بعد أسبوعين، فابتسمت من وراء عويناتها وقالت:

«حسن .. سأجرب حبك وحسن تصرفك .. اليوم هو السبت .. سأطلب منك أن تأتيني بزهرة .. زهرة واحدة .. غدًا تأتيني بزهرتين ..»

قلت في حماس:

«هذا سهل .. إن حديقة المدرسة مليئة بالأزهار والبستاني لن يلاحظ شيئًا .. »

«بعد غد تأتيني بأربع زهرات ... في اليوم الرابع تأتيني بثماني زهرات .. وهكذا .. لو استطعت أن تحافظ على هذا العهد أطول فترة ممكنة فإنني سأمنحك حبي ..»

هنا قاطعني (عصام) فعدت إلى عالم الواقع .. سألني باستمتاع حقيقي:

«طبعًا لم تف بهذا العهد ..»

قلت في حيرة:

«فوجئت بأنها تركت المدرسة ولم أعد أستطيع الاتصال بها .. عندما رحلتْ كنت قد وصلت إلى 32 زهرة.. تعبت في جمعها لكن (شيرين) كانت تستحق ..»

«أي أن هذا كان اليوم السادس ...

وكنت تنوي الاستمرار في تنفيذ هذا القسم للأبد ؟»

«طبعًا .. ليس الأمر عسيرًا .»

تحرك (عصام) بكرسيه المتحرك ليقف جواري حيث وقفت جوار النافذة وقال:

«كانت تسخر منك يا صاحبي .. إنها تكرر معك قصة الحكيم الهندي الذي طلب من الملك أن يكافئه على اختراع رقعة الشطرنج .. طلب من الملك أن يضع له حبة قمح في المربع الأول وحبتين في الثاني وأربع حبات في الثالث .. وهكذا .. حتى يصل إلى المربع رقم 64 ... بالطبع قبل الملك هذه الصفقة وإن تضايق من ضعف المكافأة التي طلبها ذلك الحكيم قليل الذوق .. وراح رجاله يعملون في حساب القمح المطلوب .. لقد نسى الملك قوة المتواليات العددية المرعبة .. اتضح أن كمية القمح المطلوبة لتنفيذ هذا الوعد تفوق كمية القمح الموجودة على كوكب الأرض .. حتى لو تم تجفيف المحيطات وزرعها .. لأن الكمية هي...»

ومد يده يعبث بمفاتيح الكمبيوتر ثم قرأ الرقم الناتج:

«هو ناتج ضرب رقم 2 في نفسه 64 مرة .. أي 18446744073709551615 حبة قمح ! .. لو أنك واظبت على وعدك حتى اليوم الرابع والستين لوجدت أن عليك قطف هذا العدد من الأزهار !»

«وهذا معناه ؟»

«التعجيز طبعًا .. فقط أرادت أن ترى ما إذا كنت ستتبين الشرك أم لا .. وكانت تعرف أنها مغادرة المدرسة قريبًا فلن تتعبك أكثر من أسبوع !»

ثم أضاف وهو يمد يده إلى آلة حاسبة على مكتبه :

«أما الاعتراف الأول بينكما فهي قد عقدت لك امتحانًا رسبت فيه بجدارة .. هذه طريقة معروفة للكتابة تعتمد على تشابه الأرقام العربية مع الحروف اللاتينية على شاشات الحاسبات .. لا تنس أن الأرقام 1، 2، 3 تدعى الأرقام العربية .. أما الأرقام التي تحسبها عربية فهي هندية .. الفتاة كانت تمسك بالآلة الحاسبة وتجري عليها هذه الحسبة البسيطة:

0.4/200

الناتج هو 0.002

لو أنك قلبت الآلة الحاسبة لقرأت بوضوح كلمة ZOO .. هناك بعض التشوه في الحروف طبعًا، لكنها مقروءة .. جرب هذا بنفسك .. مثلاً كم يساوي حاصل ضرب 3 في 257 ؟... الناتج هو 771 .. اقلب النتيجة تجد كلمة ILL أي (مريض)...

«حتى من دون قلب الشاشة تظل التشابهات كثيرة جدًا .. التشابه شديد بين حرف O ورقم صفر .. حرف B يتشابه مع رقم 8 .. حرف S يتشابه مع رقم 5 .. حرف Z يتشابه مع رقم 2 .. هذه مشكلة في برامج OCR التي تحول النص الإنجليزي الذي صورته الماسحات الضوئية .. والغربيون يطلقون على هذا الخلل اسم (خطأ B/8)... »

قلت له في حيرة:

«ماذا تعني بما كتبته لي أول مرة ؟»

«أرادت أن تبلغك رسالة .. اللقاء في حديقة الحيوان Zoo .. وتركت لك أن تفهم أو لا تفهم .. لو أنك فهمت لصرت جديرًا بها ... !.. لكنك انصرفت غاضبًا ..!.»

صحت في غيظ وقد وقفت في وسط الغرفة:

«هل تعني أنها حددت لي مكانًا للقاء وأنا لم أفهم ؟.. وبعد ثلاثين عامًا فهمت أنت ؟»

قال في خبث:

«الأمور تدل على ذلك ..!.»

صرخت وأنا أوشك على الموت غيظًا:

«أي أن الحب كان يقرع بابي لكنني لم أفهم ؟.. كان بوسعي أن أحظى بحبيبتي (شيرين) ؟!»

لاحظت انه متحفظ صموت واندهشت لهذا، ثم حانت منه نظرة حذرة إلى ما وراء ظهري فاستدرت لأرى سبب الصمت الذي هبط عليه ..

كانت (غادة) زوجتي تقف هناك مع (عفاف) حاملة صينية عليها أكواب عصير ..

وكانت في عينيها نظرة شيطانية .. لم أر إنسانًا يشبه الكوابيس كما رأيتها في هذه اللحظة ..

وضعت الصينية ثم نظرت لي فلو أن النظرات تقتل لسقطت أرضًا، ثم غادرت الغرفة ومعها (عفاف)..

قال لي (عصام) بوجه ممتقع، وصوت مبحوح من فعل الرعب:

«بيني وبينك .. أنت لم تكن تستحق (شيرين) ... الرجل الذي لا يعرف كيف يحسب المتواليات العملاقة .. الرجل الذي لا يعرف طريقة كتابة الحروف على الآلة الحاسبة .. الرجل الذي يصرخ باسم حبيبته الأولى بينما زوجته على بعد خطوات في المطبخ ... هذا الرجل لا يستحق شيرين !.»

الرعب يجتاح المدينة

الحر يخنق الأفكار ويخنق الأحلام، ويخنق كل ما هو جميل أو لطيف أو محبب .. في تلك الساعات الكريهة من ظهر أحد أيام أغسطس ..

في الصيدلية التي تقع عند أول الشارع تجلس (سارة) .. الفتاة المتوسطة في كل شيء .. في الجمال والمال والمؤهل العلمي .. لا يمكن أن تتهمها بالقبح أو الفقر أو الجهل، لكنك كذلك لا تقدر على أن تصفها بالحسناء الثرية المثقفة بقلب مستريح ..

كانت جالسة في الصيدلية وحدها تتابع بنصف وعي مسلسلاً تلفزيونيًا أبله بدا كأن من صنعوه هم الذين صنعوا هذا الحر القائظ .. عندما رأت ذلك الشاب يدخل الصيدلية ..

كان فارع القامة يضع عوينات سودًا، وثمة جرح طويل قديم على خده الأيمن .. ثيابه لا بأس بها وتنم عن ذوق طيب .. وقف في الصيدلية بضع ثوان يتأمل الأرفف وهي علامة تعرفها جيدًا .. إنه يحاول تذكر ما كان يريد .. في النهاية ألقى عليها السلام ثم سألها عن عقار معين لفقدان الشهية وبالتالي الوزن (لن أذكر أسماء هنا) ..

تأملت ثيابه شبه الواسعة وتساءلت في سرها عن سبب طلبه لهذا العقار .. لكل زبون قصة .. هل هو يرى في نفسه بدانة لا وجود لها، أم هو يطلب العقار لزوجة بدأت تتحول إلى فيل ؟.. قصة طويلة تكمن وراء هذا الطلب، وقد اعتادت أن تسلي مللها بأن تتخيل تكملة القصة ..

اتجهت إلى الرف فانتقت علبة مليئة بالأقراص دسمة المنظر وقالت له وهي تخط عليها عبارات بقلم فلوماستر:

«خمسة أقراص قبل الأكل بربع ساعة مع كوب ماء كبير .. ثلاث مرات»

أطلق صفيرًا مذهولاً من ضخامة الجرعة فقالت باسمة:

«الفكرة أن هذه الأقراص تنتفش فتجعلك تبدأ الأكل وأنت فاقد الشهية ..»

تفحص العلبة وتساءل في حيرة:

«لا نشرة ؟»

«هكذا يفعلون .. لا تقلق .. هذه الأقراص عبارة عن ألياف نباتية مضغوطة .. لو أن طفلاً ابتلع العلبة كلها فلن يحدث شيء ..»

أخرج ورقة عملة ذات فئة كبيرة فأخذتها وأعطته الباقي وابتسمت له في تعاسة، ثم

عادت لمشاهدة البرنامج بينما غادر المكان ..

قال لي صديقي العبقري (عصام) وهو يلقي بالمنديل الرابع في سلة المهملات:

«لا جدوى . من الواضح أن هذا مرض الموت ..»

كان شديد التفاؤل كما أعرف عنه .. وعلى كل حال كان منظره يوحي بهذا وأكثر .. أنفه أحمر كالسكارى وعيناه ذابلتان واهنتان .. ألعن حالة انفلونزا رأيتها منذ زمن .. والغريب أنها تحدث في أغسطس..

كان يجلس هناك على كرسيه المتحرك عاجزًا عن الكلام أو التنفس .. وقد صبت (عفاف) الباسلة جالونات من عصير الليمون الساخن في جوفه لكنه كان يزداد سوءًا ..

قلت له وأنا أبعد الفيروسات التي تطير حول وجهي:

«أنت بحاجة إلى مضاد حيوي ..»

قال في غيظ:

«مضاد حيوي مع فيروسات ؟.. يجب أن تجدد معلوماتك الطبية ..»

ثم أشار إلى كومة من الأوراق في غيظ وقال:

«علي أن أجد التركيز والبال الرائق لأقرأ هذه الرسائل العلمية .. لكن في رأسي مصنعًا لا يكف عن الهدير والدق ..»

قلت وأنا أتجه للباب:

«سأحضر لك مسكنًا قويًا .. إن الصيدلية قريبة ..»

أشعر بسعادة عندما يتيح لي أن أقدم له شيئًا .. فهو عظيم الكبرياء حريص على أن يبدو قويًا مستغنيًا ..

هكذا نزلت إلى الشارع الذي يوشك على الاشتعال، واتجهت إلى الصيدلية القريبة . لكني إذ دخلت وجدت أنها أقرب إلى مسرح عبثي .. دموع .. صراخ .. فوضى .. هناك رجلان قلقان وفتاة باكية .. الفتاة كما فهمت اسمها (سارة).. كانت تردد أنها غير مسئولة عما حدث، بينما أحد الرجلين يتهمها بالغباء ..

«قلت لك إنني سأحتفظ بأقراص علاج السكر في هذه العلبة .. وقلت لي إنك فهمت !»

هنا تدخلت لأسأل عما هنالك فقال لي أحد الرجلين في ضيق:

«لا شيء .. باعت أقراص علاج السكر على أنها دواء لفقدان الشهية .. »

«وهل هذا خطير ؟»

«ليس خطيرًا إلى هذا الحد .. دواء السكر يُعطى منه قرص أو قرصان في اليوم..
بينما دواء فقدان الشهية جرعته خمسة أقراص قبل الأكل ثلاث مرات !»

«وهل هذا خطير ؟»

نظر لي في غيظ وقال:

«هذا البائس سيبتلع خمسة أقراص جرعة واحدة قبل الأكل .. سوف يلفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يفهم أنه يموت !»

سألت في غباء:

«لم لا تخبرونه بذلك ؟»

«هذا (زبون طياري) لا نعرفه ولم نره من قبل. وعلى الأرجح لن نراه ثانية أبدًا ..»

هذا هو موقف (الدواء فيه سم قاتل) الشهير .. الفيلم الذي قدمه العبقري (كمال الشيخ) واستطاع أن يقترب في الإثارة والتشويق من منزلة (هتشكوك)..

سمعت باقي التفاصيل وأوصاف الرجل ثم قلت لهما وأنا أغادر الصيدلية:

«أنا ضابط شرطة وسوف أتصرف ..»

لكن كيف أتصرف ؟.. في فيلم (كمال الشيخ) اتصل الصيدلي بحكمدار العاصمة وسرعان ما كانت الإذاعة تطلق النبأ الشهير .. كان هذا في زمن سهل يقول الناس فيه لبعضهم (سعيدة مبارك) وكان حكمدار العاصمة هو (يوسف بك وهبي).. لم تعد الأمور بهذه البساطة .. سوف أحتاج إلى نصف يوم كي أقنع أحدًا بإذاعة خبر كهذا، ثم أن أحدًا لم يعد يشاهد القنوات الأرضية أو يسمع المذياع .. الكل يتابع الفضائيات ..

هرعت إلى بيت (عصام) وحكيت له القصة فبدا مهتمًا برغم حالته التعسة ..

«هل تعني أن هذا الرجل البائس يحمل علبة كاملة من دواء السكر على أنها أقراص تخسيس؟»

ثم هز رأسه في عدم تصديق:

«ما أغبى الناس !.. يحتفظون بدواء في علبة دواء آخر دون بيانات .. في فترة من الفترات كانت الأمهات يضعن صودا الغسيل في كوب ماء ثم يملأن الدنيا صراخًا عندما يشربها أطفالهن لأن منظرها يبدو كاللبن .. النتيجة أن الطفل البائس يموت فورًا أو يفقد المريء ويستبدلونه بجزء من القولون !»

ثم نظر لي مفكرًا وقال:

«هات الهاتف ..»

تناول السماعة وطلب رقمًا ثم قال:

«مرحبًا يا (محمود).. هناك رجل ابتاع أقراص تخسيس في علبة .. ماذا ؟.. وما شأنك بهذا؟.. دعني أكمل ... المشكلة ان العلبة تحوي دواء قاتلاً.. شاب يلبس ثيابًا أنيقة نوعًا وعلى خده جرح ويضع عوينات سودًا .. الصيدلية تدعى (ابن سينا) وتقع في ..... أريد أن تبلغ هذه الرسالة حرفيًا لخمسة من معارفك .. من ير هذا الشاب عليه أن يحذره حالاً ويتصل برقم (وذكر رقم هاتفه).. هذه أمانة سوف يسألك الله عنها ..»

ثم طلب رقمًا آخر وكرر الرسالة:

« مرحبًا يا (شريف).. هناك رجل ابتاع أقراص تخسيس في علبة .. المشكلة ان العلبة تحوي دواء قاتلاً.. شاب يلبس ثيابًا ... الخ .. الخ»

فعل هذا ثلاث مرات أخرى .. ثم نظر لي باسمًا ..

قلت له في شك:

«الا ترى أنها طريقة غير فعالة ؟؟ »

«بل هي أكثر كفاءة من الإذاعة ذاتها .. لقد ذكرتهم بأنها أمانة أمام الله حتى أقلق ضميرهم الديني .. هكذا لن يجسر أحد على مخالفة أوامري لأننا شعب متدين بطبعه .. فلننتظر ولنر .. كم الساعة الآن ؟.»

«الواحدة والربع ظهرًا ..»

هكذا ظللنا ننتظر ..

عطست مرتين وبدأ أنفي يسيل .. واضح أنني أصبت بتلك العدوى منه .. وبدأت ادرك أن هذا مرض الموت لا شك فيه .. طلبت من عفاف أن تحضر لي بعض الليمون الساخن بينما راح (عصام) يحاول أن يركز في تلك الأوراق العلمية ..

في الساعة الثالثة إلا الربع دق جرس الهاتف فوثب (عصام) يمسك بالسماعة .. بدا يصغي ثم بدأ الحبور يزحف إلى ملامحه:

«مهندس (داود) ؟.. مرحبًا بك .. أنا أدعى (عصام فتحي).. شكرًا لك .. تقول إنه جارك وإنك حذرته ؟..لم يتناول قرصًا ؟.. أشكرك جزيل الشكر .. في أي وقت ..»

ثم وضع السماعة ونظر لي في انتصار وقال:

«نجحنا يا صبي !»

قلت له في ذهول:

«خلال ساعتين إلا الربع ؟.. هل لك أن تفسر لي ؟»

قال وهو يمسك بورقة وقلم:

«الناس لا تصدق قوة المتواليات .. تعال نر ما يحدث عندما ننقل الخبر إلى خمسة أشخاص، بفرض أن عملية الاتصال تستغرق ربع ساعة:

في الساعة الواحدة عرف الخبر شخص واحد ..

في الساعة الواحدة والربع عرف الخبر خمسة أشخاص وأنا .. إذن هم ستة أشخاص ..

في الساعة الواحدة والنصف عرف الخبر 6 + (5x5) .. إذن هم 31 شخصًا..

في الساعة الثانية إلا الربع عرف الخبر 31 + (5x25) .. إذن هم 156 شخصًا..

في الساعة الثانية عرف الخبر 156 + (25x125) .. إذن هم 781 شخصًا..

في الساعة الثانية والربع عرف الخبر 781 + (25x625) .. إذن هم 3906 شخص..

في الساعة الثانية والنصف عرف الخبر 3900 + (25x3125) .. إذن هم 19531 شخصًا..

في الساعة الثالثة إلا الربع عرف الخبر 19531 + (25x15625) .. إذن هم 97656شخصًا..

إذن نحن قد عرفنا معلومات نحو مائة ألف شخص في أقل من ساعتين .. »

قلت له في دهشة:

«لاحظ أن تعداد القاهرة يبلغ الملايين ..»

«لكن حظنا الحسن جعل واحدًا من هؤلاء يعرف الرجل .. لا تستهن برقم مئة ألف أبدًا.. وعلى كل حال لو استمرت هذه المتوالية لوجدت أن كل واحد في القاهرة كان سيعرف الموضوع خلال أربع وعشرين ساعة ..»

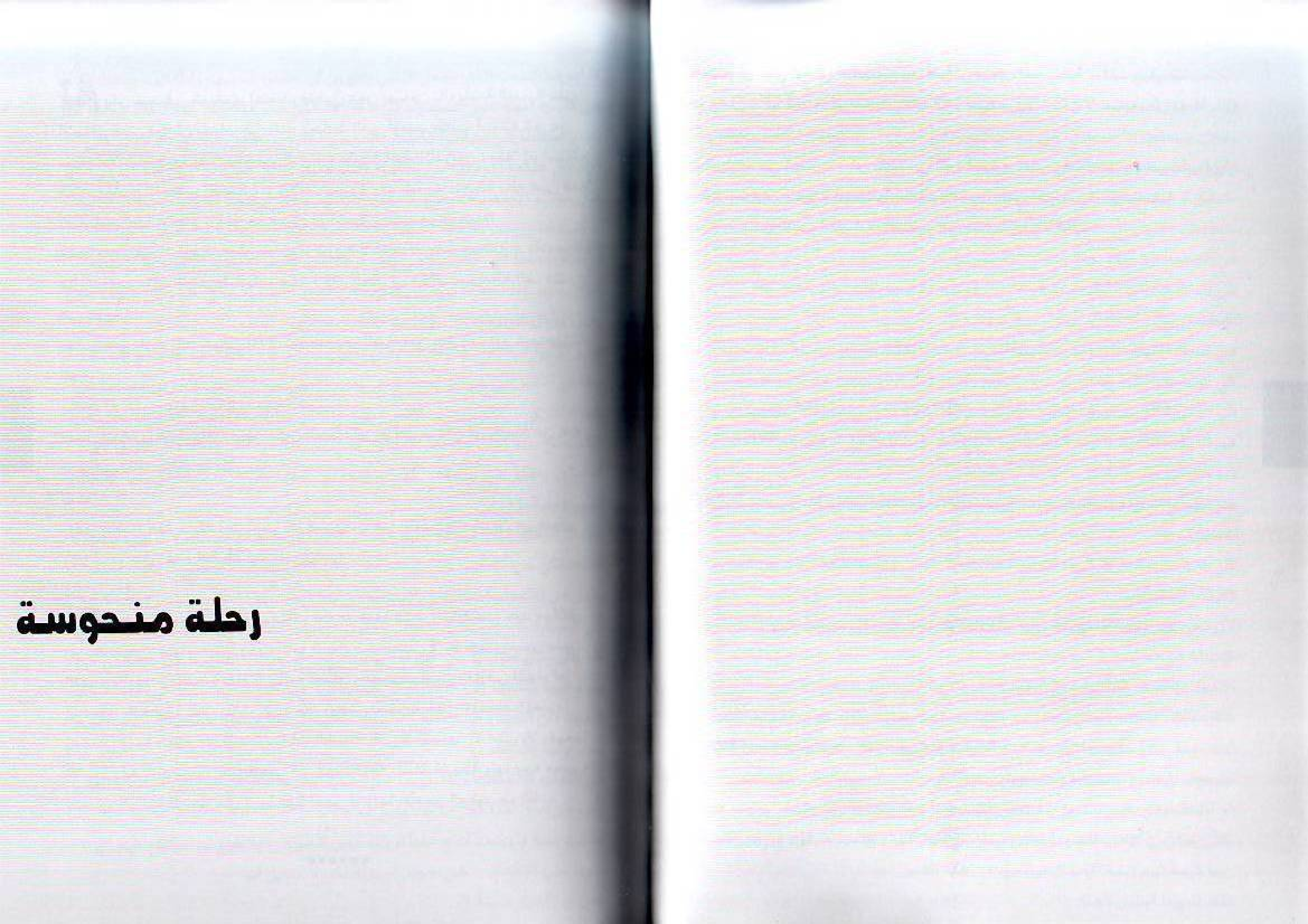
ثم أضاف وهو يلقي بمنديل آخر في القمامة:

«الآن يمكن أن تذهب للصيدلية كي تبتاع لي هذا الدواء وتتخذ ما تراه من إجراءات .. ربما توجه لهم تهمة الإهمال أو شيء من هذا القبيل ..»

قلت له وأنا أجلس لاهثًا:

«أعتقد أن علي أولاً أن أطلب من (عفاف) أن تذهب للصيدلية .. لقد صار هنا مريضان .. أنا سعيد لأن مجيئي هنا أنقذ حياة بريء .. لكن لا أستبعد أن بريئًا آخر سيلقى حتفه اليوم ..»

ونظرت له في إعجاب .. لن يكف عن إثارة انبهاري حتى وقد أوشك المرض على أن يطير صوابه .. أعتقد أن خلايا عقل هذا الرجل هي آخر شيء سيموت فيه .. إنه بحق يستحق اللقب الذي أطلقته عليه في سري: رجل الأرقام.



رحلة منحوسة

لم يكن صديقي العبقري (عصام فتحي) ممن يهتمون بالرياضة البدنية على الإطلاق حتى قبل أن يصاب في ذلك الحادث الذي أقعده، وكانت أسئلته تنم عن سذاجة لا شك فيها وهو يتابع مباراة عابرة على شاشة التلفزيون.. مثلاً لم استطع قط أن أشرح له معنى (التسلل) أو (الأوف سايد)، وقد شعرت للحظة بأنه غبي فعلاً ثم ابتلعت هذا الاتهام .. آخر من يمكن أن نتهمه بالغباء هو (عصام)..

فقط كان يتابع المباراة فتخطر له أشياء غريبة لا تمت للموضوع بصلة .. ذات مرة قال لي وهو يتابع إحدى المباريات عندما قال المعلق إن هناك نحو مائة ألف متفرج في المدرجات:

«هل تتصور أن هناك حوالي 270 شخصًا بين المشاهدين لهم ذات يوم عيد ميلادك ؟»

نظرت له غير مصدق، فقال مصححًا:

«نحن نتعامل بالمتوسطات .. قد يكون العدد أكبر أو أقل .. لكن لو تكلمنا عن عشر مباريات لكانت النتيجة أكثر دقة .. »

قلت له :

«وهل ينطبق هذا عليك أنت أيضًا ؟.. أنت ولدت في التاسع والعشرين من فبراير .. وكنا نتندر على هذه النقطة أيام المدرسة ..»

قال باسمًا:

«أنا الاستثناء الوحيد للقاعدة .. هناك 68 مشاهدًا فقط يشاركونني عيد ميلادي ..»

ثم عاد يتناول عشاءه بينما رحت أتابع المباراة في حماس لا يضايقني سوى صوت القضم والبلع .. دخلت (عفاف) جالبة الشاي وراحت تتهامس معه في أشياء لم أسمعها، والحقيقة أنني بدأت أشعر بأن زوجتي عبقرية حقًا .. (عفاف) تحب (عصام) وهذا واضح من تلك الإيماءات الخافتة التي لا تقدمها إلا أنثى ولا يفهمها إلا رجل، لكن ما مصير هذا الحب ؟.. إنها لطيفة باسلة نشيطة ولها وجه محبب للنفس، ولو لم يكن قد مال إليها فهو أحمق أو ربما الأحمق الوحيد هو أنا ..

••••••

لا أعرف السبب الذي يجعل الناس يقررون أن يضعوا أنفسهم وأطفالهم وحقائبهم في سيارة تتجه عبر الصحراء إلى مكان ما، لكن هذا ما حدث فعلاً.. لقد وجدنا أننا نضع أطفالنا في سيارتي قاصدين (مرسى مطروح).. إنها رحلة ليست هينة على الإطلاق عندما تقوم بها من القاهرة لكننا فعلنا ذلك.. يجب أن أذكر أننا كنا في مايو قبل موسم الاصطياف بفترة لا بأس بها طمعًا في أن نجد المدينة الحسناء خالية .. كنت أنا وزوجتي وثلاثة الأطفال .. لا أعرف كيف استطعنا أن نحشر (عصام) و(عفاف) معنا لكننا نجحنا في ذلك .. هو في المقعد الأمامي الأيمن وعلى ساقه الغافية وضعنا طفلاً.. زوجتي وعفاف في المقعد الخلفي وعلى حجر كل منهما طفل يعوي ويبلل ثوبيهما..

يبدو ترتيبًا سخيفًا، خاصة انه يعني تغييرات أكثر .. مثلاً سوف أقيم مع (عصام) وطفلي الأكبر في غرفة واحدة، بينما تقيم زوجتي مع الطفلين الآخرين وعفاف في غرفة أخرى .. لكن زوجتي كانت تعرف علاقتي بـ (عصام) وأنني عاجز بالفعل عن الاستمتاع بأية إجازة من دون أن يكون معي .. دعك من أنني أدرك قبل غيري أن المسكين يختنق في عزلته .. لهذا تنازلت عن حقها وقبلت .. دعك من أنها كانت تحب (عفاف) فعلاً..

مضت الرحلة على خير و(عصام) يحكي للأطفال حكايات مسلية لا تنتهي، بينما كف عقلي عن التفكير .. صار الحاضر والمستقبل طريقًا لا ينتهي .. فقط احتفظت بقدر من الانعكاسات العصبية يسمح لي بألا أقتل حمولة اللحم البشري المحشورة في السيارة ..

كنا الآن نشق طريقنا عبر الساحل الشمالي .. نمر بتلك القرى السياحية التي لا يقيم فيها سكانها إلا ثلاثة أيام كل عام وفيما عدا هذا تصير مدن أشباح .. فجأة شعرت بأن السيارة ليست على ما يرام .. إنها تنتفض وتحاول جاهدة أن تبقى حية لكن اجلها قد جاء ..

في النهاية استطعت أن أميل بها إلى جانب الطريق .. وكان هذا في الوقت المناسب لأنها قررت أن هذا آخر ما تستطيع عمله ...

أطلقت سبة ونهضت أفتح الغطاء وأتفحص المحرك .. بالطبع لم أستطع فهم أي شيء على الإطلاق .. هي حركة غريزية لكن لا معنى لها ..

«هل من أخبار سيئة ؟»

قالتها زوجتي في قلق وهي تطل من المقعد الخلفي، فقلت لها في غيظ:

«لا شيء سوى الأخبار السيئة .. »

ثم نظرت إلى الأفق .. لا شيء .. والأدهى أن المرور في هذا الطريق نادر في هذا الوقت .. قلت لهم إن السبيل الوحيد هو أن أمشي بحثًا عن شخص يساعدنا .. ربما جهاز هاتف أو أي شيء .. سيكون عليهم أن يبقوا بالسيارة .. لا أريد مغامرات لا داعي لها ..

هنا انفجر طفلان باكيين يطلبان دخول الحمام، وأي حمام يطلبان ؟.. أخذت كلاً منهما من يده إلى أحد الكثبان الرملية ودرنا خلفه وسمحت لهما بأن يلبيا نداء الطبيعة، ثم أعدتهما للسيارة وحييت (عصام) وانطلقت في تلك الرحلة الشاقة التي لا يعلم إلا الله متى تنتهي ..

كان هذا وقت العصر وأدركت كم سيكون المشهد بهيجًا عندما يأتي الظلام .. الظلام والصحراء .. أتمنى أن أبكي وأرتجف ،التصق بواحد من الكبار، لكن الحقيقة القاسية هي أنك الكبار !... أنت من يجب أن يمنح القوة والأمن للآخرين !..

أمشي .. أمشي ...

لا أعرف كم مضى من وقت .. مشيت نحو ساعة تقريبًا .. لكن معالم الطريق كانت متشابهة بحيث لم أعد قادرًا على تمييز شيء ...

فجأة لمحت وسط الرمال على جانب الطريق شيئًا ما .. إنه جسم مريب الشكل في جوال دفن نصفه في الرمل .. هكذا قررت أن اقترب لأرى .. ولكن .. حذار .. نحن قريبون من العلمين بلا شك وأعرف أن اجتياز الرمال على جانبي الطريق خطر داهم هنا .. ما زالت ألغام الأخ (روميل) والأخ (مونتجمري) تؤدي عملاً لا بأس به بعد ستين عامًا ..

لمحت آثار أقدام على الرمال فتوكلت على الله وقررت أن اقترب أكثر .. سوف أغرس قدمي في مواضع الأقدام السابقة ..

انحنيت وتفحصت الجوال وعلى الفور وثبت مترين للخلف .. إن الكف التي رأيتها تطل منه ليست كف كلب بالتأكيد .. الآن أفهم محتوى هذا الجوال ... هناك من دفنه في الرمال لكن يبدو أن الضواري قد حاولت أن تكشفه .. على كل حال لا شك في أن هذا العمل البشع لم يتم منذ فترة طويلة وإلا لأزالت الريح آثار الأقدام ..

حاولت أن اعرف بالضبط أين أنا .. يجب أن أحدد هذا المكان بدقة لأعود له فيما

بعد... هناك سحابة فوقه فهل هذا كاف على طريقة (جحا) ؟.. لا توجد شجرة مميزة .. لا يوجد شيء ... هكذا بحثت عن غصن شجرة وغرسته على جانب الطريق .. بقى أن أحدد كم توغلت في الداخل حتى بلغته .. عشرين خطوة .. عشرين خطوة من جانب الطريق ..

هكذا تركت هذا المشهد الرهيب وواصلت السير .. كان حظي حسنًا هذه المرة لأني لم امش أكثر من عشر دقائق حتى وجدت ورشة ميكانيكا عند مدخل واحدة من تلك القرى، وسرعان ما كنت أركب وراء الميكانيكي دراجته البخارية عائدين إلى حيث كانت أسرتي ...

تقاضى الرجل مبلغًا فلكيًا، لكني لم أدفع مالاً في حياتي بهذا القدر من الرضا .. لقد كلمني عن (الكتاوت) ودائرة (الديفرانس) فلم أع حرفًا مما يقول .. كل ما أعرفه هو أن السيارة دارت ..

وحينما انطلقنا من جديد كانت المرأتين والأطفال قد ناموا .. هكذا صار بوسعي أن اتكلم همسًا مع (عصام).. قلت له إنني وجدت جثة مدفونة في الرمال .. إنها على بعد ساعة من المشي ..

قال في حماس إننا يجب ان نجدها ونبلغ الشرطة .. دم هذا القتيل لن يذهب هباء وقد أوشك على ذلك ..

هكذا رحت أشق الطريق بسيارتي .. لا ادري كم من الوقت مر، لكني في النهاية ادركت يقينًا أنني أضعت الطريق .. لن أستطيع أبدًا العودة إلى الموضع الذي كانت فيه الجثة ..

قال في خيبة أمل:

«لا تعرف الكيلو الذي وجدتها فيه ؟»

«لم احمل مقياس المسافات للأسف .. »

فكر حينًا ثم قال لي:

«كم قطعنا منذ كانت السيارة معطلة ؟..»

«حوالي ثلاثة كيلومترات ..»

قال في حزم:

«الرجل ...»

«ولكن ...»

ونفذت الأمر .. فرأيته يمسك بساعته ويأمرني بأن أمشي بخطوتي العادية .. ثم قال في انتصار:

«الأمر سهل .. تعال واركب ..»

انطلقت بالسيارة وسألته عن نظريته فقال باسمًا:

«أنت وجدت الجوال على بعد أربعة كيلومترات من موضع السيارة، لأنك تقطع في الساعة أربعة كيلومترات وقد وجدته بعد ساعة ..»

«يا سلام ؟؟.. من أدراك بسرعتي في المشي ؟»

«هناك قاعدة قديمة هي أن عدد خطواتك في ثلاث ثوان هو ذاته عدد الكيلومترات التي تقطعها في ساعة !.. لهذا أجريت هذه التجربة الصغيرة معك فوجدت أنك تمشي أربع خطوات في ثلاث ثوان .. إذن أنت تمشي أربعة كيلومترات في الساعة !»

«لم أسمع هذه القاعدة من قبل ..»

«لكنها صحيحة .. ويسهل التأكد منها .. نحن نقترب من الكيلومتر الرابع .. عليك أن تبطئ السرعة وتبحث عن العصا ..»

مرت الدقائق وفجأة هتف في انتصار:

«هذا هو غصن الشجرة ..»

أوقفت السيارة وترجلت منها .. هنا رأيته يخرج رأسه من نافذة السيارة ويقول لي في خبث:

«الجوال على بعد ستة عشر مترًا ونصف ..»

نظرت له في غيظ وقلت:

«هو على بعد عشرين خطوة .. لا تقل إنك تعرف اتساع خطوتي .. قد تكون ضيقة أو واسعة جدًا»

«بل اتساع خطوتك هو 0.83 متر . ثمة قاعدة قديمة أخرى تقول إن اتساع خطوتك هو منتصف المسافة بين عينيك وقدميك !.. طولك كما أعرفه 175 سم .. نطرح عشرة سنتيمترات لقمة رأسك .. إذن نحن نتكلم عن 165 سم .. نصفها 0.83 متر بالتقريب .. إذن عشرون خطوة 0.83x تساوي ستة عشر مترًا ونصف !»

أغاظني هذا الجزء الأخير، فقد شعرت انه استعراض عضلات لا أكثر ..

لكني على كل حال مشيت في حذر تلك العشرين خطوة، ووجدت الجوال حيث هو .. طبعًا ليس من الوارد أن نحمله أو نأخذه معنا .. كل ما أستطيع عمله هو أن ابلغ

رجال الشرطة بمكانه ... عشر دقائق من المشي قبل بلوغ ذلك الميكانيكي .. إذن 666 مترًا لو أخذنا كلام (عصام) على محمل الجد ..

ترى من هو ؟.. من قتله ؟.. أسئلة لا أعرف إجابتها لكني أعتقد أن رجال الشرطة قادرون على معرفتها .. (هابياس كوربوس) قاعدة قديمة مهمة في القانون الروماني ومعناها (أظهر الجثة)... متى ظهرت الجثة صار كل شيء ممكنًا وصارت هناك بداية خيط .. سوف يعرفون صاحب الجثة ويعرفون من اختفى بهذه الصفات من المناطق المجاورة .. ويعرفون أعداء هذا المختفي ولسوف تضيق الدائرة ...

كالعادة يبرهن (عصام) على أنه رجل الأرقام وعلى أن هذا المستقر فوق كتفيه هو كمبيوتر آدمي .. كمبيوتر يملك الخيال وروح المبادأة ...

عدت إلى السيارة وحاولت إدارة المحرك فلم يستجب .. كان من الخطأ أن أوقفه ..

تبادلت نظرة ذات معنى مع (عصام)...

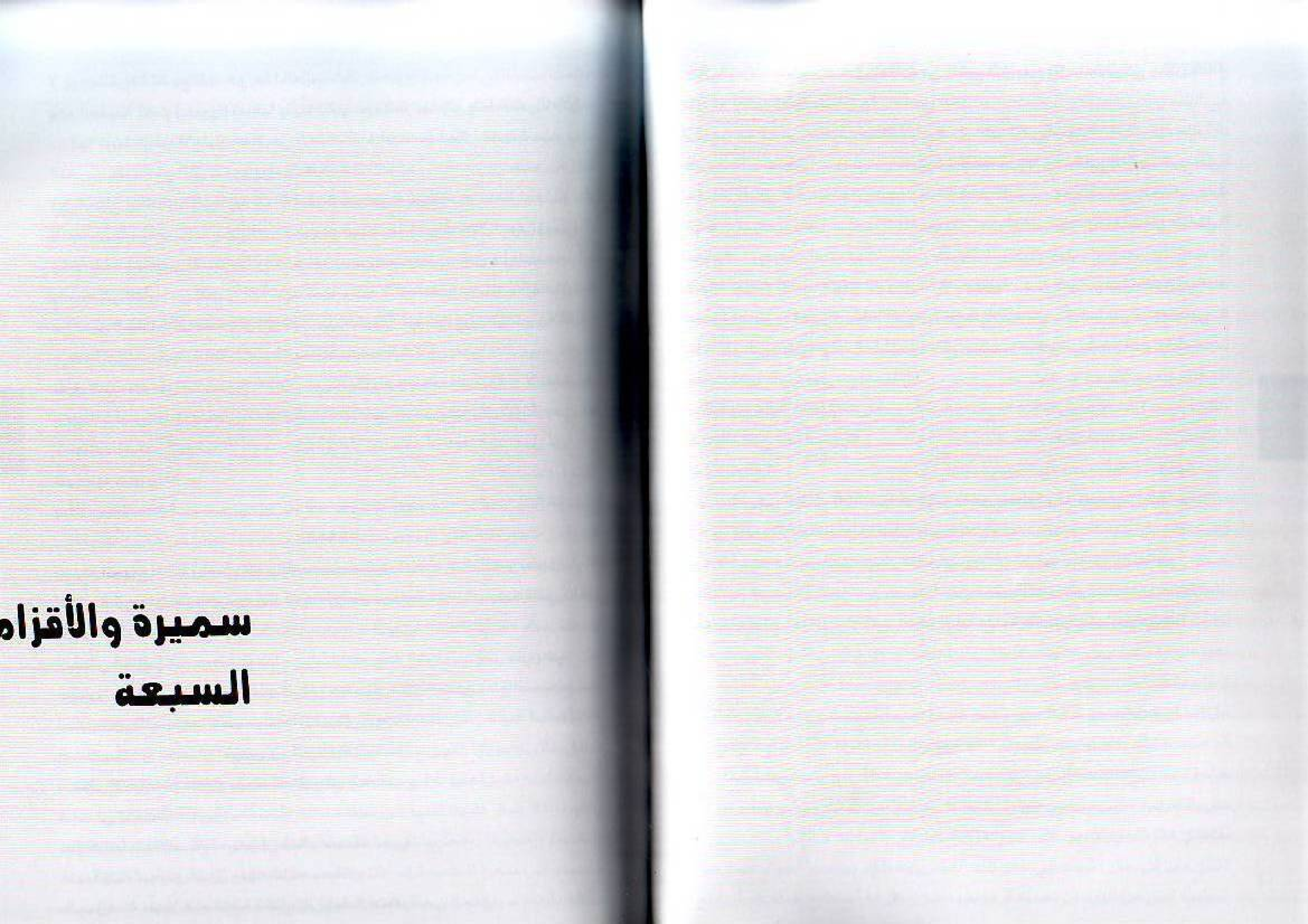
«ماذا تنوي عمله ؟»

قلت وأنا افتح باب السيارة:

«وماذا تتوقع ؟

.. سأمشي في الظلام 666 مترًا أو عشر دقائق بخطوة يبلغ اتساعها 0.83 متر إلى أن أجد هذا الميكانيكي النصاب وأعود به .. »

حقًا لا أعرف السبب الذي يجعل الناس يقررون أن يضعوا أنفسهم وأطفالهم وحقائبهم في سيارة تتجه عبر الصحراء إلى مكان ما، ويطلقون على هذا النشاط المرعب اسم (استمتاع) .. لو كنت تعرف إجابة مقنعة فلتخبرني بها من فضلك !..



سميرة والأقزام
السبعة

لا توجد طريقة لصنع نقود في هذا العالم ..

هذه الحقيقة كانت (سميرة) تعرفها يقينًا لكنها لم تشعر بها إلى هذا الحد إلا الآن .. إنها توشك على الاختناق فعلاً من فرط الحاجة العاصرة للمال، لكنها ليست من القادرين على صنع المال عندما يريدون ذلك ..

قال الجراح إن حالة عيني أمها تتفاقم وإن الليزر هو الحل الوحيد .. قال مجلس المدينة إن البناية ستنهار خلال أيام ويجب أن تجد شقة أخرى.. قال أخوها (عمر) إنه لا يفقه شيئًا في الاستاتيكا وإنه بحاجة لدرس خصوصي .. إذن هي ليست بحاجة إلى القليل من المال .. إنها تريد كمية وافرة لا تنضب .. لم تطلب أية علاوة من مدير الشركة لأنها تعرف أن الموضوع غير مطروح .. لو كان كريم النفس ملائكيًا – وهو كذلك – لمنحها ثلاثمائة أو أربعمائة جنيه .. قطرة في بحر ..

طرق الحصول على مال سريع – وهي الوراثة والزواج والهجرة والسرقة – لا تناسبها حميعًا .. ليس لها قريب في البرازيل صار ملك البن ويوصي لها بكل ثروته، وهي لا تملك مؤهلات تتيح لها الزواج من مليونير، ولا تستطيع أن تجد عقد عمل لأن شهاداتها غير براقة ..

وماذا عن السرقة ؟..

••••••

عندما اتجهتُ لزيارة (عصام فتحي) صديقي عبقري الأرقام، كنت أشعر بخجل لأنني لم أزره منذ أسبوعين، وهأنذا أزوره من أجل مصلحة .. هناك مشكلة في عملي أتوقع أنه يملك جوابًا عنها ..

أدخلتني (عفاف) إلى غرفته فوجدته جالسًا أمام رقعة الشطرنج، وهو غارق في التفكير .. الغريب أنه قد أضاف ملاحتين صغيرتين لتكونا ضمن قطع الشطرنج .. أحيانًا نفعل ذلك عندما نفقد قطعة من أحجار اللعب .. عندي في البيت أستعمل قداحة بدلاً من الحصان الأبيض لأن العيال قد تخلصوا من هذا الأخير من الشرفة .. لكني لاحظت أن أحجار رقعته كاملة .. أي إنه يلعب بـ 34 قطعة ..

قالت لي (عفاف):

«هو كذلك منذ الصباح .. يبدو ان هناك معضلة تحيره ..»

عندما تنبه لوجودي أشرق وجهه الشاحب وقال:

«الجمل .. !.. فعلاً هذه اللعبة تحتاج إلى قطعة إضافية هي الجمل ..»

ابتلعت ملحوظتي عن عدم رؤيته نور الشمس مما أورثه هذا اللون الشاحب الجدير بمصاصي الدماء أو طحالب الكهوف، وقلت:

«هل جئت أنت بعد كل هذه السنين لتكتشف أن لعبة الشطرنج خطأ ؟»

قال في هدوء:

«لم أقل إنها خطأ لكن قلت إنها ناقصة .. ثانيًا لست أول من لاحظ ذلك .. العبقري (الخليل بن أحمد) مكتشف أوزان الشعر هو أول من فكر في هذا .. اليوم أجرب فكرته فأجدها موفقة جدًا ..»

ثم أزاح الرقعة جانبًا وقال:

«دعنا من هذا وقل لي القضية التي تحيرك .. لا تقل إنك جئت للتودد لي لأني أعرف تعبير الحرج على وجهك واحمرار أذنيك .. هاتان علامتان تدلان على انك في حيرة..»

فكرت حينًا ثم بدأت أحكي قصتي بلا اعتذار لأننا تجاوزنا هذه المرحلة ..

••••••

قلت لـ (عصام):

«الشركة التي أتحدث عنها شركة كمبيوتر .. المدير يدعى (محمود أبو رية) وهو رجل عصامي ناجح لكنه شارد الذهن سريع النسيان .. هناك خزانة في مكتبه بها مبلغ لا بأس به .. بما أن الدار أمان كما يقولون وهو يعرف من يعملون معه، فهو لا يعنى بإغلاق مكتبه جيدًا .. لكنه بالتأكيد يغلق الخزانة بأرقام سرية، تتغير يوميًا ولا يعرفها سواه ..»

قال (عصام):

«فلنختصر .. لقد سرقت الخزانة طبعًا ومن دون أثر للعنف»

«بالتأكيد .. هناك اثنان فقط يمكن أن يتسللا للمكتب .. الأول مهندس كمبيوتر شاب يدعى (فخري) وهو ذراع (محمود) اليمنى .. إن سيرته حسنة ولا تحوم حوله شبهات لكنه مقبل على الزواج .. الثاني سكرتيرة تدعى (سميرة).. مؤهل متوسط وفقيرة .. لا غبار عليها، لكنها في ضائقة مالية طاحنة .. وفي ذلك اليوم بقى (محمود) و(سميرة) و(فخري) إلى ساعة متأخرة.. ثم جاءت مكالمة عاجلة لـ (محمود)) فاضطر إلى مغادرة المكتب وترك الاثنين .. هو يثق بهما ثم إنه يعرف أن الخزينة مغلقة بأرقام سرية .. بعد هذا غادر (فخري) الشركة ليبتاع شطائر وعندما عاد

كانت (سميرة) تتأهب للرحيل .. رحلت أولاً ولم يرها .. ثم رحل هو بعد ساعة .. أعني أنه كان بوسعها ان تغادر الشركة وهي تحمل كيسًا صغيرًا ونفس الشيء ينطبق عليه .. طبعًا يزعم كل منهما أن الآخر كان مرتبكًا وعلى غير طبيعته ..

«في اليوم التالي يفتح (محمود) الخزينة ليكتشف اختفاء ستين ألفا من الجنيهات لم يوردها إلى المصرف .. لا توجد علامات عنف أو اقتحام .. أي أن اللص لم يأت من خارج الشركة .. بالنسبة لنا جئنا واستجوبنا الشابين .. وجدنا بصمات أصابعهما خارج وداخل الخزينة لكن (محمود) يرى أن هذا طبيعي لأنه يطلب منهما تنسيق محتويات الخزينة كثيرًا في وجوده .. طبعًا لم تظهر على واحد منهما علامات ثراء مفاجئ .. لكن أصابع الاتهام تشير بشكل شبه كامل إلى (سميرة) .. إنها الأحوج»

قال (عصام) في شيء من السخرية:

«والأفقر .. والأضعف .. لكن ماذا عن صديقك صاحب الشركة شارد الذهن ؟.. ألا يكتب الرقم السري لفتح الخزينة على قصاصة ورق ينساها في أي مكان ؟..»

«تأكدنا من هذا .. إنه مصر على أنه لا يدون الرقم أبدًا ...»

فكر قليلاً ثم قال:

«هل معك صور ؟.. من المفيد لي أن أتأمل المكان والوجوه ..إن الانطباعات الأولى لا تساوي شيئًا عندكم معشر رجال الشرطة، لكنها مهمة جدًا بالنسبة لي .. »

مددت يدي في جيبي وأخرجت حافظتي وناولته ثلاث صور :

«الصورة الأولى التقطت للمدير منذ شهر .. من تقف جواره هي (سميرة).. الصورة الثانية له مع (فخري).. الصورة الثالثة للمكتب بعد السطو وقد التقطها رجالنا ..»

راح يتأمل الصور في استمتاع وهو يبدي ملاحظاته التي لم أر لها لزومًا:

«فتاة خجول وأعتقد أنها ربيت جيدًا .. مدير طيب القلب لا يتعالى على مرءوسيه .. هذه التماثيل جميلة جدًا لكنها فكرة غريبة ..»

كانت هناك إلى يمين الجالس على المكتب مكتبة صغيرة عليها صف من التماثيل الخزفية الصغيرة التي تمثل أقزام (ديزني) السبعة .. لكن عددها لم يكن كاملاً.

انتهى من فحص الصور، ثم نظر لي باسمًا وقال:

«قلت إن (سميرة) هذه حاصلة على مؤهل متوسط ..»

«خدمة عامة .. نعم ..»

«إذن ليس بوسعها معرفة الـ .. أنا أتهم الفتى .. قلت ما اسمه ؟.. (فخري).. أنا

اتهمه وسوف يلين مع الضغط عليه .. »

نظرت له في حيرة.. هل بدأ في التخمين ؟.. هل يبرئ الفتاة لمجرد أنها الأضعف والأفقر ؟.. الفقراء أيضًا يرتكبون الجرائم فليسوا جميعًا ملائكة مظلومين، ثم إن (فخري) هذا ليس (بيل جيتس) لو كنت تفهم قصدي ..

قال (عصام) وهو يلتقط الصور التي وضعها على النضد:

«هل عرفتم الأرقام السرية للخزينة في ذلك اليوم ؟.. ليست الصور كاملة لكنها تبدأ بـ 183 »نظرت له في ذهول ثم أخرجت هاتفي المحمول وأجريت مكالمة سريعة بصوت هامس، ثم عدت له وأنا أحمل ألف سؤال ..

قال (عصام) في هدوء:

«التماثيل التي تمثل الأقزام السبعة هي طريقة بسيطة جدًا استعملها (محمود) ليتذكر الرقم السري للخزينة، ولم يخبركم بها .. لو لاحظت لوجدت أن هناك تماثيل ناقصة .. تمثال .. تمثال .. تمثال .. لا تمثال .. الخ . لو أننا استبدلنا الرقم واحد بالتمثال الموجود والرقم صفر بالموضع الخالي لوجدنا الشكل التالي:

1 0 1 1 0 1 1 1

وهو رقم ثنائي ممتاز يمكن قراءته لمن يملك خبرة بسيطة بالحاسب الآلي، وهي خبرة لا أعتقد أن الفتاة تملكها .. (محمود) كان يملكها وكان في كل يوم يغير أوضاع التماثيل لترمز للرقم الجديد الخاص بالخزينة ثم يغادر المكتب.. تماثيل بريئة لا يلاحظها أحد سوى مساعده (فخري) الذي أدرك أن وضع التماثل يتبدل من يوم ليوم .. هكذا كون نظريته الصحيحة، وتمكن من فتح الخزينة .. »

قلت في صبر:

«أنا لا أعرف أي شيء عن هذه الأرقام الثنائية ..»

قال وهو يخط على ورقة ليوضح لي الأمر:

«الحاسبات الآلية لا تملك عشرة أصابع مثلنا بل إصبعًا واحدًا .. إما أن تكون هناك شحنة أو لا شحنة .. نعم أم لا .. نرمز للوضع الأول برقم (1) والوضع الثاني برقم (0) .. كل رقم يدعى Bit والثمانية أرقام تدعى Byte .. تخبرنا قوانين الاحتمالات أن الأوضاع المحتملة هي 256 وضعًا تبدأ بالصفر وتنتهي بـ 255 .. لكن الترقيم الثنائي معروف من القرن السابع عشر عندما وصفه العلامة (لينتز)، وتم استخدامه في الحاسبات الآلية عام 1937 على يد العلامة (شانون) .. يمكن أن تقرأ الرقم

الثنائي بأن تبدأ من اليمين وكلما قابلت الرقم 1 فهذا يعني (2) مرفوعة لأس الخانة التي أنت فيها بعد طرح واحد .. مثلاً لقراءة الرقم الثنائي 1001 نبدأ من اليمين .. نعرف أنه مجموع 2 أس صفر (وهذه معناها الرقم 1) .. زائد صفر .. زائد صفر .. زائد 2 أس 3 (أي 8) .. إذن المجموع 1 + 8 هو 9 ..

```
1 0 0 1
^ ^ ^ ^
| | | |_____________> 1 x 2^0 = 1 x 1 = 1
| | |_______________> 0 x 2^1 = 0 x 2 = 0
| |_________________> 0 x 2^2 = 0 x 4 = 0
|___________________> 1 x 2^3 = 1 x 8 = 8
                                       ---
                                        9
```

الآن تعال نر وضع التماثيل الستة الذي تركه صاحبنا ... ثلاثة تماثيل متجاورة من اليمين ثم لا شيء .. ثم تمثالان .. ثم لا شيء .. ثم تمثال ..

أي أن الرقم الثنائي هو :

```
1 0 1 1 0 1 1 1
^ ^ ^ ^ ^ ^ ^ ^
| | | | | | | |_________> 1 x 2^0 = 1 x   1 =   1
| | | | | | |___________> 1 x 2^1 = 1 x   2 =   2
| | | | | |_____________> 1 x 2^2 = 1 x   4 =   4
| | | | |_______________> 0 x 2^3 = 0 x   8 =   0
| | | |_________________> 1 x 2^4 = 1 x  16 =  16
| | |___________________> 1 x 2^5 = 1 x  32 =  32
| |_____________________> 0 x 2^6 = 0 x  64 =   0
|_______________________> 1 x 2^7 = 1 x 128 = 128
                                              ---
                                              183
```


يقولون ساخرين عن النظام الثنائي: الناس عشرة أنواع .. نوع يفهم الترقيم الثنائي ونوع لا يفهمه !.. وعلى كل حال برهن هذا النظام عن أهميته في الحاسبات الآلية وفي الشفرات .. لا احد يخطر له أن شريطًا مزخرفًا عليه العلامات : 11111111 إنما يعني 255 .. »

«القصة واضحة .. (محمود) لم يكن يثق في ذاكرته، لذا اعتمد على هذه الطريقة العبقرية ليحتفظ بأرقام فتح الخزينة، ولم يخطر بباله أن هناك عبقريًا آخر سوف يستنتج أن وضع التماثيل يتبدل كل يوم .. القصة كلها معقدة ،أشك في أن تخطر ببال هذه الفتاة البريئة الساذجة مهما كانت ظروفها ..»

لقد انتهت القضية !.... كنت أقف مذهولاً بينما أعاد رقعة الشطرنج ليضعها أمامه وقال وهو يحك رأسه:

«لكني ما زلت مصرًا على أن هذه اللعبة تحتاج إلى جمل ما ! .. ألا ترى هذا معي ؟»

هرقل يعود

لا توجد حدود للقدرات البشرية ..

هذا هو ما قلته لنفسي في تلك الليلة ..

في البداية آمنت أنه لا حدود للقدرات البشرية من ناحية الثراء والنفوذ، ثم اقتنعت بأنه لا حدود من ناحية القوى العضلية ..

كنت في ذلك الحفل الذي أقامه أحد معارفي من الأثرياء رجال الأعمال.. حفل من الطراز الذي تحضره مرة واحدة في حياتك، ويظل فمك مفتوحًا عدة أشهر بعدها بينما تظل زوجتك ترمقك في نظرة صامتة .. معناها كما هو واضح هو: لماذا فقدت عقلي وقبلت الزواج من هذا المتسول ؟

قلت لها في وضوح:

«هذا الرجل لص .. ولهذا دعاني إلى الحفل لأنه حريص على أن يكسب مودة بعض رجال الشرطة متوهمًا أنهم سيساعدونه يومًا ما ..»

«هراء !.. هؤلاء هم علية القوم بلا زيادة أو نقصان ..»

حمام السباحة مغطى بأضواء كاشفة ملونة والبالونات الملونة تسبح فوق مائه، بينما ينتشر حول أقدامنا ذلك الضباب الغريب .. ثم يقطع شعاع الليزر كل هذا من حين لآخر .. هناك منحدر زلق شديد الميل يقود إلى المسرح (ولم أفهم الغرض منه وقتها) حيث تقف فرقة تعزف موسيقا راقية .. كان هناك غناء لكنها تلك المطربة الساحرة التي لا أذكر اسمها والتي تراها في الفضائيات كلها ..

أما عن الطعام فحدث ولا حرج .. لحوم الكانجارو والنعام وأسماك القريدس والاستاكوزا والروبيان (الجمبري).. طبعًا لم أتذوق أيًا من اللحوم العجيبة لكني انبهرت بوجودها..

هناك الكثير من الرقص وهؤلاء القوم الذين يعتبرونهم زبد المجتمع، والذين يحمل كل منهم لقب (بيه) .. وهناك ضحكات مفتعلة ومجاملات و.. و..

المهم أنني لم أكن سعيدًا على الإطلاق .. كنت أريد أن ينتهي كل هذا .. دعك من أن حياتي كضابط شرطة جعلتني لا أجد راحتي النفسية إلا في أوساط أكثر خطورة وأقل افتعالاً.. يبدو أنني لا أكون على راحتي إلا مع لصوص الشقق والنشالين والقتلة .. الآن أجدهم ليسوا بهذا السوء ..

عندما توقفت الموسيقا، ظهر صاحب الحفل من مكان ما وأعلن عن فقرة سوف تدير

رؤوسنا .. إنه قد استطاع أخيرًا أن يقابل (هرقل).. (هرقل) لم يمت وإنما خليفته موجود هنا معنا، وبما أنه حريص على إمتاعنا وإبهارنا فقد دفع له كي يعرض قواه على السادة هنا ..

ودوت الموسيقا على حين ظهر شاب له ارتفاع وحجم الغرفة التي تجلس أنت فيها الآن .. كان يلبس قميصًا حشر فيه صدره كيفما كان حتى أوشكت أزراره على الانفجار .. أسمر اللون له عنق صلب محتقن الأوردة، وقدرت أنه في العقد الثالث من عمره..

دون كلمة أخرى مد (هرقل) يده إلى كأس فارغة فبدأ يقضم الزجاج منها ويلوكه في استمتاع كأنه قطعة من الحلوى .. شهقت بعض السيدات غير مصدقات وضحك الرجال .. الأخ (هرقل) ينهي الكأس ثم يرفع لنا ما تبقي منه .. يصفق الجميع ..

وأخيرًا جاء الجزء الضخم من العرض .. لقد دخلت سيارة يابانية (نصف نقل) إلى المكان فابتعد الناس يفسحون لها الطريق منبهرين .. تراجعت السيارة بظهرها لتصعد المنحدر شديد الميل إلى منتصفه، على حين قال صاحب الدعوة:

«كما ترون .. السيارة تعتمد على فراملها لتبقى حيث هي، لكنها مهددة في أية لحظة بأن تنحدر لأسفل .. (هرقل) سوف يبقي السيارة حيث هي بقواه المذهلة»

(هرقل) تقدم في ثقة فربط حبلاً إلى مقدم السيارة، ثم جذب الحبل وربطه إلى وتد يخرج من أرض المسرح ولفه ثلاث مرات ثم جذبه على كتفه .. وبدأ الشد ..

«الآن أعدوا أيديكم للتصفيق ..»

خرج سائق السيارة منها ليرينا أنه لم يعد يضغط على الفرامل .. لكن السيارة ظلت حيث هي بمعجزة صغيرة .. إن عضلات (هرقل) هي الشيء الوحيد الذي أبقاها حيث هي .. كان يشد الحبل بقوة وعنف وقد ارتسمت الأوردة بوضوح على عضلاته .. وللحظة شعرت برهبة حقيقية وأنا أرى رجلاً يشد سيارة زنتها عدة أطنان باستعمال قواه الجسدية لا أكثر ..

تعالى التصفيق .. لا أحد يصدق ما يراه .. وقالت زوجتي:

«لو كان هذا العملاق هو (هرقل) فإن صاحب الحفل هو (قارون)..!.. »

أخيرًا اكتفوا من التصفيق فعاد سائق السيارة لها، وفك صاحبنا الحبل لتتهادى السيارة نازلة المنحدر ..

أعترف أننا حينما عدنا لدارنا ظل هذا العرض الأخير في ذاكرتي فترة لا بأس بها

.. لم أعتد أن أرى عروض الحواة هذه في الحفلات العامة، لكن صاحب الحفل كان مصرًا على أن تنقطع أنفاسنا انبهارًا ..

••••••

مساء اليوم التالي ذهبت لزيارة صديق عمري (عصام) الذي أقعدته الإصابة فصار (رهين المحبسين) على طريقة (أبي العلاء المعري).. محبس المقعد المتحرك ومحبس ميله إلى العزلة .. لم يعد له من صديق ولا أمل إلا الرياضيات ..

جلست في غرفته التي امتلأت بالمراجع الرياضية وقلت له في إحباط:

«حفل من هذه الحفلات يشعرني بالتضاؤل .. هؤلاء لم يكونوا بشرًا عاديين .. إنهم يملكون الجمال والمال والنفوذ .. بينما أنا رجل شرطة لكني لا أستطيع أن أجد سباكًا ليصلح حوض المطبخ ..»

ابتسم ابتسامته الساخرة المنهكة وقال:

«لأنك رجل شرطة شريف لا يستغل نفوذه .. يمكنك متى أردت أن تحقق الكثير من الأشياء .. على الأقل يمكنك أن تجد سباكًا بالتأكيد.. أنت لا تملك المال ولا الجمال ولا النفوذ لكنك فرد منتج في المجتمع، بينما هؤلاء يمارسون عملاً لا تدري ما هو .. وعلى الأرجح كونوا ثرواتهم من سلب ثروات الآخرين ..»

سرتني هذه المجاملة .. على الأقل سأذكر هذه المعلومات لزوجتي ..

أردفت قائلاً:

«العرض الذي قدموه كان شديد الإبهار ..»

قال (عصام):

«يجب أن يكون كذلك، فالغرض الوحيد منه هو أن تنقطع أنفاسكم انبهارًا .. نبلاء الرومان كانوا يلقون السجناء للأسود لإبهار ضيوفهم .. صاحب الحفل هذا قرر أن يقدم لكم نوعًا من ألعاب الحواة، وبما أن هؤلاء القوم لا ينزلون إلى الأزقة، فإن الحاوي يعتبر شيئًا مذهلاً بالنسبة لهم ..»

«لكنه شيء مذهل بالفعل ..»

«لست من أصحاب هذا الرأي .. هل تعرف أن عادة أكل الزجاج انتشرت بين طلاب جامعة (هارفارد) عام 1973 حتى أوقفت الإدارة ذلك بأوامر صارمة ؟.. السبب أن طالبًا يدعى (رزوفيتش) جرب أن يفعل ذلك ليبهر رفاقه، فأكل كأساً من زجاج ومصابيح كهربية. تلاحظ هنا أن عادة أكل الزجاج هذه نموذج لقدرة غير عادية لكن الأشخاص العاديين اكتسبوها لأنهم أرادوا ذلك.. وطبعًا لا أنصحك بتجربة ذلك لأنه خطر جدًا .. »

«لو افترضنا هذا فما تفسيرك لموضوع جر العربة بالحبل ؟.. لا تقل لي إنه اكتسبها بالمران ..»

مد (عصام) يده إلى مكتبه فتناول ورقة وقلم، وراح يجري بعض الحسابات ثم قال لي:

«حتى لو بلغ وزن العربة 50 طنًا فإن (هرقل) صاحبك لم يكن بحاجة إلا لقوة تبلغ تسعة كيلوجرامات !.. ألم تشتر شيئًا من السوق قط ؟.. ألم تعد لبيتك حاملاً عشرة كيلوجرامات ؟.. هذا هو بالضبط الجهد الذي احتاج إليه صاحبك»

قلت في غيظ:

«هاأنتذا تعود لألعاب الحواة هذه ..»

قال باسمًا:

«لكنها ألعاب حواة تعتمد على العلم .. هذا الهرقل الخاص بك لا يملك قدرات خارقة.. لو قلت لي إنه جر العربة بشعره أو مباشرة كما نرى في التلفزيون لصدقت ، لكني في هذه الحالة لا أرى إلا نصابًا يفهم علم الميكانيكا جيدًا ..»

كنت أعرف أنه سيقدم لي تفسيرًا مقنعًا كالعادة، لكني حاولت عدة مرات أن استبق ما سيقول، وفي النهاية جلست كطفل اشرب الشاي الذي جلبته لي (عفاف) وأحاول أن افهم..

قال (عصام) وهو يريني الورقة التي يمسك بها والتي امتلأت بالحسابات:

«منذ بداية التاريخ عرف الناس أنه عندما تلف حبلاً حول وتد عدة مرات، فإن قوى الاحتكاك بين الوتد والحبل تصل لقيمة عظيمة .. عندما تزيد لفات الحبل بمتوالية عددية تتزايد قوة الاحتكاك بمتوالية هندسية .. هذه الصيغة اهتم بها عالم الرياضيات (أويلر) الذي عاش في القرن الثامن عشر، ووضع معادلة عرفت باسمه .. هي ..»

قاطعته متوسلاً:

«لا معادلات .. أرجوك ..»

ابتسم وقال:

«ليكن .. سألخص الأمر .. معادلة (أويلر) تستطيع بسهولة أن تحسب مقدار القوة

التي يبذلها الرجل للتغلب على ثقل ما يحاول الهبوط لأسفل .. لو كان وزن العربة خمسين طنًا – وهذا مستحيل – وقام (هرقل) بلف الحبل حول الوتد ثلاث مرات فإنه يحتاج إلى قوة تساوي تسعة كيلوجرامات تقريبًا .. »

«هل تعني ؟»

«هذا ما أقول بالضبط .. (هرقل) هذا لم يكن (هرقل) على الإطلاق .. أما لو لففنا الحبل حول الوتد خمس أو ست مرات فإن أي طفل صغير كان بوسعه أن يجر هذه العربة .. »

ثم أردف باسمًا:

«هذا ينطبق على العقد كذلك .. كل بحار يعرف أنه كلما زادت العقد في الحبل ازداد متانة .. السبب هو أن العقدة تعمل عمل الوتد في هذه القصة، وبالتالي كلما زادت العقد كلما صار الحبل اقدر على تحمل أثقال اكبر .. »

قلت في ذهول:

«وهل هذا الهرقل يعرف هذا ؟»

«نحن نمارس الكثير من حقائق الفيزياء لا شعوريًا ودون أن نعرف التفسير العلمي لها .. نلبس ثيابًا داكنة ثقيلة في الشتاء دون أن نعرف التفسير الضوئي الحراري لهذا .. السيارة تبطئ في المنحنيات دون أن يعرف صاحبها قانون القصور الذاتي .. لكن ثق إنك لو طلبت من هذا الرجل أن يجر السيارة مباشرة دون وتد يلف الحبل حوله، لما استطاع ولسقطت السيارة من فوق المنحدر وتهشمت ..»

قلت مفكرًا:

«إذن لم يخل الأمر من زيف ..»

قال وهو يعيد الورقة إلى المكتب:

«كانت ليلة من الزيف والادعاء.. كل ما لدى هؤلاء القوم زيف وادعاء .. فلماذا يكون هذا الحاوي استثناء ؟.. »

عبقري هو (عصام).. عرفت ذلك عندما قرأت أخبار القضية التي تورط فيها مضيفي بعد أشهر من هذا الحفل.. شيكات بدون رصيد وقرض مصرفي يقدر بعدة ملايين .. لقد كان نمرًا من ورق .. حتى الحذاء الذي كان ينتعله لم يكن من ماله الخاص .. على الأقل أنا لست مدينًا لأحد ولا أخدع ضيوفي بحواة يفهمون قوانين الاحتكاك !

للمرة الأولى أشعر بأنني أفضل حالاً، لكني ما زلت أبحث عن سباك بارع، فهل تعرف واحدًا ؟!!

ألعاب صوتية

عندما زرت (عصام) في ذلك اليوم لم أتوقع ما سأراه ..

لقد فتحت لي (عفاف) الباب، فسألتها عن أحوالها .. قالت إنها بخير ..

لا .. ليست بخير على الإطلاق .. عرفت هذا من أنفها المنتفخ وعينيها الحمراوين ..

وقد سمحت لي بالدخول ثم هرعتْ إلى الشرفة حيث يبدو أنها كانت واقفة ..

بصراحة أصابني الرعب فهرعت ألحق بها هناك وسألتها :

«هل حل مكروه بـ (عصام) ؟»

نظرت لي وتظاهرت بالمرح وقالت:

«لا .. لا .. كان من السهل أن تفتح غرفته لتراه ..»

«إذن ما هي الكارثة ؟.. لابد أنه وجه لك عبارة مزاح ثقيلة من عبارات مزاحه التي تزن طنًا ..»

قالت على الفور:

«لا .. لا .. إنه يأخذ حذره في كلامه معي ولعل هذه هي المشكلة ..»

لم أرد أن أتدخل أكثر، لكني لا أطيق دموع الأنثى .. إنها غزيرة وافرة وهذا أدعى لأن تكون رخيصة ..

لو صار الذهب متوفرًا كالحديد لما ساوى شيئًا، لكن دموع الأنثى هي الشيء الوحيد في العالم الذي تزداد قيمته كلما كثر .. إنها تشلنا معشر الرجال وتحيرنا وتربكنا..

تركتها حيث هي ولم أجسر على طلب كوب من الشاي ..

في مكتبه كان (عصام) جالسًا أمام الكمبيوتر وهو يجري حسابات معقدة على برنامج SPSS الذي لا أعرف عنه سوى اسمه ..

نحيلاً كبير الرأس واهن الجسد تلتمع الشاشة على عدسات نظارته فتوحي بأنه كائن فضائي غريب لا يمت لأرضنا بصلة ..

كائن لا ينبض فيه إلا العقل ..

قلت له وهو عاكف على الكتابة:

«لا أريد التدخل في شئونك الخاصة لكن (عفاف) قريبتي .. كنت آمل أن تنال منك معاملة أفضل ..»

نظر لي في دهشة ثم قال:

«أنا ؟.. لم أؤذها قط اليوم ولا في أي يوم آخر .. أنت تعرف هذا ..»

«إذن هي تبكي في الشرفة لأنها تحب هذا ..»

نظر لي في ذهول هذه المرة وقال:

«(عفاف) تبكي ؟.. لماذا ؟»

لكني كنت قد توصلت إلى استنتاجي ..

إن زوجتي عبقرية مثل (عصام).. أنا الأحمق الوحيد الذي أعرفه هنا .. زوجتي قالت منذ زمن إن (عفاف) تحب (عصام) وتميل له، وأنا سخرت منها .. في كل مرة أتلقى شدة أذن تخبرني أنني أحمق ..

قلت له وأنا أجلس إلى مقعد:

«أعتقد أن (عفاف) تحبك..

وهذا الحب بلا أمل في الوقت الحالي ..»

بدا كأنه أهين وهتف محتجًا:

«لا تكن غبيًا ..

(عفاف) فتاة شابة حسناء، بينما أنا بقايا رجل.. لم يبق مني شيء حي سوى عقلي .. فماذا يروق لأنثى في عقل على مقعد متحرك ؟»

هذه هي المشكلة ..

إنه يبدو لها حبًا بلا أمل لكنها لا تستطيع الخلاص منه ..

طبعًا لا أجرؤ أن أقول هذا لـ (عصام) ..

إن الوغد فاتن ..

هذه العبقرية التي تدير الرءوس والتي لا يمكن أن تصدقها ما لم تراها ..

لا أعتقد أن الفتاة تدرك بالضبط مدى عبقرية هذا الرجل، لكنها تدرك صورة مبهمة عن قدراته ..

سألني (عصام) عن سبب زيارتي ..

هناك ثلاثة أسباب بالنسبة له: التودد – أخذ رأيه في فكرة – الفرار من مشادة مع زوجتي ..

قلت له:

«الثلاثة أسباب معًا ..

أنا هارب من زوجتي، فجئت أتودد لك وأعرض عليك أن تقوم برحلة معي في البحر الأحمر الأسبوع القادم ..»

قال باسمًا:
«يمكنني أن أمنحك شيئين لكني أعتذر بشدة عن الرحلة فأنا مشغول كما تعلم ..
طبعًا لن تصحب المدام في الرحلة بصفتك هاربًا ..»
قلت:
«ليس بالضبط .. سوف آخذ ابني الأكبر معي .. لا سبيل لتركه .. على كل حال تمن
لي حظًا طيبًا ..»
ثم أضفت وأنا أتجه للباب:
«حاول أن تسترضي (عفاف).. لا أعرف كيف .. هذه مشكلتك أنت !!»

••••••

«أتصل بك يا (عصام) على الهاتف الجوال وأحمد الله على أنك رددت .. نعم أنا في
وسط البحر الآن والساعة الرابعة صباحًا .. ظلام دامس .. لا أعرف لماذا أتصل بك
لكني ملهوف وخائف .. أعتقد ان سماع صوتك قد يجعلني أفكر بشكل عقلاني ...
«نعم .. حاول أن تفيق وتركز معي .. لقد توجهت مع ابني (عمرو) إلى البحر الأحمر
كما قلت لك وقضينا يومين لا بأس بهما .. ثم تعرفت هذه الفتاة الروسية الحسناء
.. اسمها (أولجا) وأنت تعرف معنى أن أصف فتاة بأنها حسناء .. لو أنك رأيتها
وهي تركب الأمواج على زحافتها ممسكة بحبل يجرها إلى لنش مندفع لحسبتها من
الأساطير الإغريقية .. لا لم يحدث شيء بيننا .. فقط أنت تعرف أن للجمال هيبة.
وهذه الهيبة هي ما جعلني أوافق على عرضها.. لقد عرضت أن تصحب (عمرو) في
رحلة باللنش إلى عرض البحر .. ومتى ؟. في منتصف الليل ..
«لا أعرف أي شيطان أقنعني بهذا .. كان الولد متعلقًا بها وبدا لي الأمر غير ذي
خطر .. إنها بارعة حقًا وبالتأكيد سيكون الولد في أمان معها أكثر مني .. لماذا لم
أركب معهما ؟.. لأن اللنش خفيف جدًا لا يتحمل ثلاثتنا ..
«هكذا وقفت على الشط في بلاهة أنتظر وأنتظر .. عقارب الساعة تغادر الثانية
فالثالثة .. لقد تجاوز غيابهما أي تأخير مبرر وصرت أرى الكارثة أمام عيني .. جن
جنوني بعد قليل وقدرت أن الأسوأ قد حدث .. إن (أولجا) و(عمرو) لم يعودا بعد
وثمة احتمال لا بأس به انهما لن يعودا أبدًا .. فتاة وطفل وحدهما في البحر المظلم

الرهيب .. اتصلنا بخفر السواحل لكنه لم يلب النداء، من ثم عرض علي رجل شهم
أن نجوب البحر معًا باللنش الخاص به بحثًا عن لنش الروسية ..ها نحن ذان نلف
وندور بلا جدوى .. (عصام).. إن قلبي يعتصر .. أتخيل ألف مصيبة وألف كارثة ..
أتخيل أن أعود لأمه لأقول لها إن ابنها البكر لن يعود !..
«ولكن .. أنا أسمع صوته من بعيد .. يصيح (بابا) .. أنا متأكد من هذا .. ليست هذه
الريح .. هذا (عمرو) يناديني .. ترى أين هو ؟..»
هنا جاء صوت (عصام) من هاتفي يقول:
«ناده !..»
كأنني لن أفعل هذا .. صحت على الفور:
«عمرو ..!.. أين أنت ؟»
جاء صوته من بعيد:
«أنا على صخرة .. لقد انقلب اللنش بنا لكننا سليمان ..!.. ساعدني يا بابا !»
كأن هذا سهل .. البحر واسع مظلم ولا سبيل للتفتيش فيه إلا بطائرة مروحية ..
لكن متى تأتي وكيف ؟.. صخرة قد توجد شمالاً أو جنوبًا أو شرقًا .. قد تكون على
بعد كيلومتر أو عشرة . إن انتقال الصوت بهذا الشكل الممتاز لا يعني أن مصدره
قريب ..
كنت أجن لولا أن سمعت (عصام) يتكلم بهدوء في الهاتف:
«حاول أن تهدأ وتتمالك أعصابك .. أنت بحاجة لها .. هل ما زالت ساعتك تعمل
كساعة إيقاف (كرونومتر) إذا أردت ؟»
«نعم ..»
«إذن ناد (عمرو) وشغل ساعة الإيقاف بمجرد أن يخرج الصوت منك .. عندما يصلك
صوته أوقف ساعة الإيقاف .. اتفقنا ؟.. لا تكن غبيًا !»
نفذت ما قاله حرفيًا .. وعندما عاد لي صوت ولدي أوقفت الساعة وقرأت الرقم ثم
صحت في الهاتف:
« عشرون ثانية !»
قال(عصام) في الهاتف:
«عشر ثوان حتى بلغه صوتك ثم عاد من عنده في عشر أخرى..!.. الصوت يقطع
ثلث كيلومتر في الثانية .. إذن هو على بعد ثلاثة كيلومترات تقريبًا !.. أريد أن

تجوب البحر بقاربك وتواصل النداء .. حاول أن تتحرك في الاتجاه الذي يقترب فيه الصوت أكثر .. كرر نفس الأمر.. ناده ثم حدد الوقت بين ندائك وندائه .. اقسم هذا الوقت على اثنين .. ثم اضرب الناتج في ثلث كيلومتر .. هكذا تستطيع معرفة بعدك عنه .. تحرك في كل الاتجاهات إلى أن تجد الاتجاه الذي تقصر عنده المسافة .. هل تعرف ما تفعلونه في الشرطة لتتبع الإشارة المنبعثة من مصدر ؟.. تخيل أنك في سيارة الشرطة الآن »

لم أفهم تمامًا ما يعنيه، لكني طلبت من سائق اللنش الشهم أن يتحرك متوغلاً في البحر أكثر .. أريد منه أن يدور حول محيط دائرة نصف قطرها ثلاث كيلومترات .. ورحت أنادي وأتلقى الصوت فأعيد حساباتي في الظلام .. البحر مظلم رهيب لا ينيره إلا كشاف اللنش .. يجب أن نجد الطفل .. يجب ...

«لا .. أربعة كيلومترات !.. نحن نبتعد !.. »

وأصيح:

«عمرو !.. هل تسمعني ؟»

«أسمعك يا بابا !»

ثم أعيد الحسابات .. أقل من ثلاثة .. نحن نقترب ..

«كيلومتر واحد .. نحن قريبان جدًا !»

استغرقت العملية الأليمة ساعة ونصفًا .. لكن الصوت صار قريبًا جدًا في النهاية .. وهتف سائق اللنش في فرح:

«الصخرة !!»

وعلى ضوء الكشاف رأيت في الأفق الصخرة الزلقة وقد وقف فوقها (عمرو) يتواثب ويهلل، بينما الروسية تلوح لنا بيدها .. سيكون من حسن حظها ألا أهشم عنقها بيدي ..

صاحت وهي تصعد إلى اللنش:

«سباسيبا !»

احتضنت (عمرو) في نهم ولم أقل شيئًا لها ..

وسرعان ما كانا عائدين على ظهر اللنش معنا .. في اللحظة التي دق فيها هاتفي وسمعت (عصام) يصيح:

«هيه !.. هل وصلت لشيء ؟»

(عصام) الذي استطاع أن يعيد لي ابني من البحر المظلم، وهو جالس في غرفة نومه غير مسلح إلا بالهاتف وعقله ..

لم أتكلم من فرط انفعال وناولت الهاتف لـ (عمرو) الذي قال في لهفة :

«عمو (عصام).. أنت عبقري !»

تنهد (عصام) وقد أزيح عن كاهله عبء ثقيل، وقال:

«لست عبقريًا .. (جول فيرن) هو العبقري ..

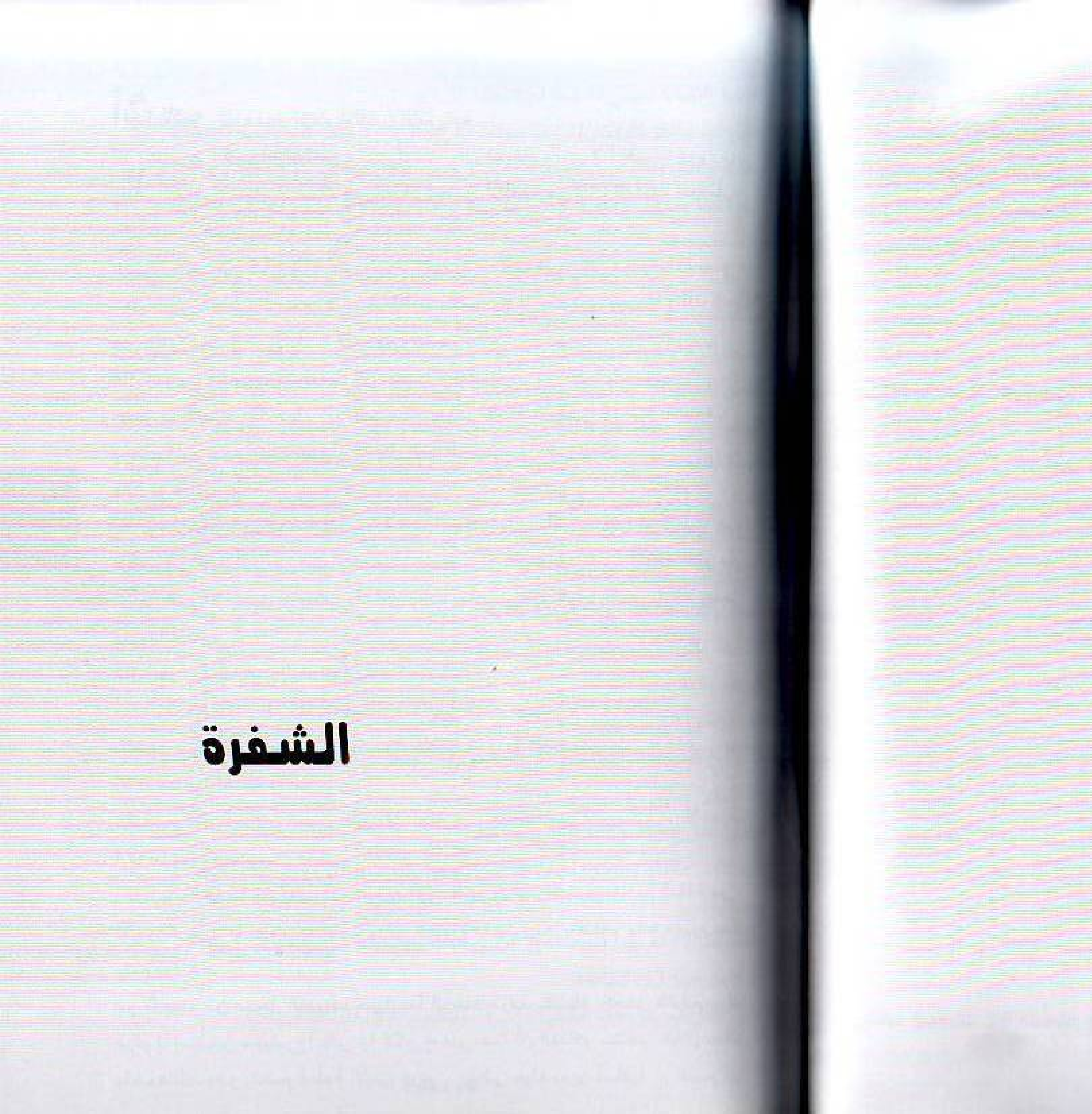
لقد استخدم هذه الطريقة في قصة (رحلة إلى مركز الأرض) حيث يجد البطل عمه بهذه الطريقة ..

حمدًا لله على سلامتك .. فقط أريد أن تعدني بشيء واحد .. »

«قله يا عمو (عصام)..»

«لا تقل لأمك شيئًا عن السائحة الروسية الحسناء التي أخذتك معها في جولة باللنش .. لو أردت أن يحتفظ أبوك برأسه أطول فترة ممكنة فلتحتفظ بهذا السر .. هه ؟..

هل تعدني بذلك ؟».



الشفرة

أشعر كأنه أحد أفلام الأكشن الأمريكية ..

أنا جالس في السيارة أتظاهر بأنني لست رجل شرطة، وأنني لا أراقب .. وجواري يجلس (عوني) زميلي منهمكًا في التهام شطيرة ابتاعها من ذلك المطعم جوارنا .. بالنسبة له هو لا يتظاهر بشيء ..

السيارة تقف في شارع (...) في وسط القاهرة .. تقف في مكان ممنوع، لذا يدنو منا رجل مرور غاضب من حين لآخر ليطالبنا بالانصراف .. ثم يرى وجهينا وتلك النظرة في عين (عوني)، فيهز رأسه في فهم ويبتعد ..

قال (عوني) والمايونيز يتساقط من جانبي فمه:

«يبدو منظرنا مريبًا جدًا .. لو كنت مكان هؤلاء الأوغاد لأوقفت العملية .. سوف يرسلون لبعضهم إشارة تقول إن رجال الشرطة ينتشرون في المكان ..»

قلت له في غيظ:

«لا يوجد مكان آخر يسمح لنا برؤية مدخل السينما .. وأكون شاكرًا لو كففت عن الكلام إلى أن تنتهي من التهام هذه الشطيرة .. لو كان هناك شيء أكرهه أكثر من الرجل الذي لا يطيق أن يبقى بلا أكل بضع ساعات، فهو الرجل الذي يتكلم وبفم مليء بالطعام»

قال وهو يرشف كوب المياه الغازية:

«هذا وقت الغداء .. لو كانت معدتك متقلصة فهذه مشكلتك لا مشكلتي ..»

ونظرت في الساعة متوترًا، وتحسست كاميرا الفيديو الموضوعة على حجري .. يجب ألا تفلت منا لحظة واحدة ..

كانت سيارتان أخريان تقفان على بعد أمتار .. وكلتاهما مليئة برجالنا .. لا تعرف أبدًا ما قد يحدث ..

أخيرًا رأيته قادمًا من بعيد .. يضع يدًا في جيبه وباليد الأخرى يقضم قطعة من الأيس كريم .. يا له من رجل !... برغم خطورة ما يقوم به، يتظاهر بأنه مجرد سائح ينعم بوقته ..

هو ذا يدنو من مدخل السينما حيث بدأ الزحام يتزايد بانتظار الحفل القادم .. إنه فيلم لـ (ستيفن سبيلبرج) على ما أذكر، ومعنى هذا أن التذاكر ستنفد خلال دقائق يقف هناك وهو يتضم قطعة الأيس كريم .. ينظر حوله بعين صافية .. أقسم أن

عينيه التقيتا بعيني لكنهما لم تتوقفا ..

أقدم لك (والتر كاوفمان).. هذا هو اسمه الحالي .. المغامر الذي تعرفه شرطة عدة بلدان، والذي نراقبه منذ جاء إلى مصر .. إنه حذر كثعلب .. لكني إذ أراه الآن لا أرى فيه شيئًا خارقًا .. مجرد سائح ممن تصطدم بالعشرات منهم في شوارع القاهرة وتنساهم على الفور ..

في حذر أخرجت الكاميرا وشغلت عدسة التقريب، وبدأت أصوره .. إنه يجري مكالمة هاتفية .. يقف .. يبدو أنه يشعر ببعض القلق ..

وسط الزحام أرى الشاب المصري الآخر .. إنه يقترب منه .. يتبادلان التحية، ثم يناوله الفتى الحقيبة .. حقيبة سفر رياضية الشكل بريئة المنظر لا تشبه حقائب النقود المرعبة التي نراها في السينما ... يناوله (والتر) وريقات صغيرة ويبتسم ..

فجأة أظلم الكادر تمامًا فرفعت عيني عن الكاميرا، لأجد تلك السيارة (الفان) تقف بجواري حاجبة عني الرؤية تمامًا .. جرى شرطي المرور يتشاجر مع السائق يطلب منه الابتعاد، على حين ترجل رجالنا من السيارتين وركضوا نحو مدخل السينما ..

لكن (والتر) لم يكن هناك ..

فقط وقف الشاب المصري مرتبكًا يحاول الفرار، لكن رجالنا أحاطوا به تمامًا ..

مد يده بالورقة إلى فمه، فصرخ أحدهم وبصعوبة تمكنوا من أن يمسكوا بيده وينزعوا الورقة منها ..

كان (والتر) قد ذاب تمامًا ..

قلت لـ (عوني) وأنا أطلب رقمًا على جهازي الجوال:

«لا تتركوا سائق الفان يرحل ..

أراهن على أنه يعمل مع (والتر)..

لقد تلقى مكالمة تطلب منه أن يحجب الرؤية عنا .. (والتر) ثعلب وقد شعر بنا بسهولة ..»

«قلت لك إنه لم يكن ينقصنا إلا تعليق لافتة (الشرطة في خدمة الشعب)»

«سأفعل هذا المرة القادمة ..

على الأقل لم يفر هذا الشاب .. سوف يتكلم .. أؤكد لك أنه سيتكلم»

••••••

لكن الفتى لم يتكلم ..

بعد أيام مرهقة من التحقيق لم نخرج بشيء .. فقط اعترف الفتى بأنه كان مكلفًا بالاتصال بـ (كاوفمان) وإعطائه مبلغًا من الدولارات، مقابل أن يخبره هذا الأخير بالموضع الذي يخبئ فيه عدة كيلوجرامات من الهيروين ..

ما حدث – يقول الفتى – هو أننا تدخلنا .. هكذا أفلت (كاوفمان) بسهولة، ولم يستطع الفتى أن يعرف مكان الهيروين .. إن من مصلحته أن نبقيه رهن الاعتقال لأن من يعمل معهم لن يصدقوا حرفًا مما يقول .. سوف يقطعون رقبته على أقل تقدير ..

والورقة التي أخذناها من (كاوفمان) ؟.. الفتى يؤكد أنه لا يعرف ما فيها .. حتى عندما أطلعناه على محتواها لم يفهم حرفًا .. قال إنها شفرة على الأرجح .. ومن يقدر على فكها هم الذين أرسلوه .. هو مجرد ساع لا أكثر ..

«وكيف كنت تضمن أنه لا يتلاعب بكم ؟..

لربما أخذ المبلغ وفر من دون أن يقدم شيئًا ؟»

قال الفتى في كبرياء:

«من أعمل معهم أقوياء ولا يمكن خداعهم .. هذه نقطة .. النقطة الثانية هي أن الأمر يتعلق بالسمعة .. لن يتعامل أحد مع مهرب مخدرات سمعته سيئة !»

سمعة حسنة في تهريب المخدرات ؟.. إن المرء لا يكف عن سماع العجائب طيلة حياته ..

بدأت مع تكرار الأسئلة أؤمن أن الفتى يقول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة .. لكنه لا يقول كل الحقيقة ..

هكذا فعلت ما كنت أنوي عمله منذ فترة ..

اتجهت إلى بيت صديقي العبقري (عصام) الذي يعرفه القارئ باسم (رجل الأرقام)..

هناك كان جالسًا أمام جهاز الكمبيوتر يشرب الشاي ويحل معضلة عويصة في الجبر الحديث ..

قلت له:

«أكره أن أعطلك، لكني فعلاً في حيرة من أمري .. إن خبراءنا عاكفون على محاولة فك هذه الشفرة، لكني فكرت فيك ..»

قال باسمًا وقد أشرقت قسمات وجهه الصلبة :

«شفرة .. هذا جميل .. لكن تذكر أن هناك شفرات كثيرة جدًا تستعصي على الحل .. معظم الشفرات التي زعم رجال المخابرات في الحرب العالمية الثانية أنهم حلوها، تم حلها عن طريق عميل يقدم لهم المفتاح ..»

ثم سجل ما يقوم به، وتراجع بالمقعد إلى جوار الأباجورة ليلقي نظرة على الورقة في يدي ..

قلت مفسرًا:

«لن أدخل في تفاصيل .. هناك مهرب مخدرات .. هناك شحنة هيروين مخبأة في مكان ما .. هذه الرسالة يجب أن تقود إلى العثور عليها ..»

قرأ المكتوب بصوت عال:

«KY – UT – WII – EJSG – ZH – TXZGH – NX – LS – WOSH.»

ثم تناول الورقة الأخرى وقرأ ما كتب عليها:

«4-10-7-3-5-3-5-5-2-1-5-4-1-5-3-2-5-1-5 – 1-3-5-1 10- 4»

قلت له:

«لم أفهم من الورقة الأولى إلا أن للحرب العالمية الثانية WWII دورًا في الموضوع ..»

«طبعًا لا دور لها ..»

ثم عاد يحك رأسه ويتأمل الورقة الأولى وقال:

«من المعتاد أن تقوم بتشفير رسالتك عن طريق استبدال كل حرف برمز أو رقم ما .. مثلاً يمكن أن ترمز لحرف A برقم 5 وحرف B برقم 7 .. يمكن أن ترمز لحرف A بوجه ضاحك أو علامة نجمة .. هذه هي أبسط صور الشفرة ..»

«هذا منطقي وسهل التطبيق هنا ..»

حك رأسه وقال:

«ليس الأمر بهذه البساطة وسأشرح لك السبب ..

هل قرأت قصة (الحشرة الذهبية) لـ (إدجار آلان بو) ؟..»

«أنت تعرف أنني لا أقرأ..»

«ليكن .. في هذه القصة وجد البطل شفرة مماثلة تقود لكنز القرصان .. كان يعرف أن أكثر الرموز استعمالاً في الإنجليزية هو E .. بالتالي قرر أن أكثر رمز يتكرر في الرسالة سيكون هو الـ E مهما كان شكله.. عندما تتكرر ثلاثة حروف تنتهي

بـ E فالاحتمال الأكبر هو أنك تعني لفظة The .. هكذا استطاع أن يصل إلى ثلاثة حروف، ومع جهد جهيد بدأ يكون الرسالة كاملة .. الطريقة التي استعملها هذا البطل هي التي عرفها علماء الشفرة فيما بعد باسم entropic attack . وهي لا تحتاج إلى عبقرية خاصة .. كل من يملك المثابرة قادر على أن يحل الشفرة التي تكون بهذا الشكل ..»

ثم راح يتأمل الرسالة وقال:

«هنا لا يوجد حرف واحد يتكرر بصورة موحية .. هذا يعني أن طريقة entropic attack لا تصلح وحدها .. هذا الرجل أذكى من ذلك .. »

ثم قال في استمتاع:

«اللعبة هي أن تستخدم أكثر من رمز في ذات الرسالة .. مثلاً لا تشير الـ Z في كل مرة إلى حرف A .. بل يمكن أن تشير الـ F مرة والـ L مرة .. هذا يجعل الرسالة مستحيلة الفهم على من تقع في يده»

«وكذلك من يتلقاها أيضًا !»

«هذا حق .. لهذا لابد أن يكون لديه مفتاح يدله على تتابع الاحتمالات .. إنها ما يدعى (أجندة المرة الواحدة أو One time pad) ووقوعها في يد العدو معناه أن الشفرة تم حلها ..»

ثم أمسك بالورقة الصغيرة المرفقة وقال:

«هذه هي .. إن حرف A يرمز له برقم 1 في كل الشفرات .. B هو رقم 2 .. وهكذا .. كل شخص يعرف هذا .. تطالبك المذكرة الصغيرة المرفقة بأن تطرح رقم 4 من الحرف الأول و10 من الرقم الثاني و1 من الرقم الثالث .. وهكذا .. ثم تجد الحروف التي تحمل هذا الترتيب الصحيح .. هكذا تعرف الحروف الأصلية للرسالة .. تعال نجرب معًا ..»

وأمسك بورقة وقلم وراح يدون ..

«أول حرف في الرسالة هو K ورقمه هو 11 في الأبجدية .. اطرح منه 4 تحصل على 7 .. الحرف السابع في الأبجدية هو G .. الآن الحرف التالي في الرسالة Y رقمه هو 25 .. سوف نطرح منه 10 لنحصل على 15 .. الحرف الخامس عشر في الأبجدية هو O »

هتفت وقد بدأت الإثارة تستبد بي:

« Go .. أي إذهب !»

هكذا راح يواصل تصحيح الرسالة حسب الورقة الصغيرة، وفي النهاية قرأ ما توصل له:

« Go to the cine WC Stuff in third »

ثم رفع عينيه نحوي وقال:

«معنى الرسالة هو: اذهب إلى دورة مياه السينما .. البضاعة في الثالثة ..»

«أية ثالثة ؟..»

نظر لي في صبر وقال:

«لابد أنهم لم يغيروا تصميم دورات المياه مؤخرًا .. هناك قمرات صغيرة متلاصقة .. أليس كذلك ؟.. البضاعة في القمرة الثالثة .. »

«لماذا لم يستخدم أسلوبًا محكمًا ؟»

«هذه رسالة شفرة وهؤلاء مهربو مخدرات .. لسنا في امتحان اللغة الإنجليزية للثانوية العامة ..»

اتجهت إلى الهاتف مسرعًا وطلبت (عوني):

«يجب أن تقوموا بتفتيش دورة مياه السينما جيدًا .. بسرعة !.. طبعًا وضع (والتر) البضاعة فوق صندوق الطرد كما يحدث في السينما .. هذه أماكن لا يفتش فيها عمال النظافة أبدًا .. المهم أن تسرعوا .. قد ينجح رجال العصابة في الاتصال به ومعرفة مكان المخدرات شفهيًا ..»

قال ضاحكًا:

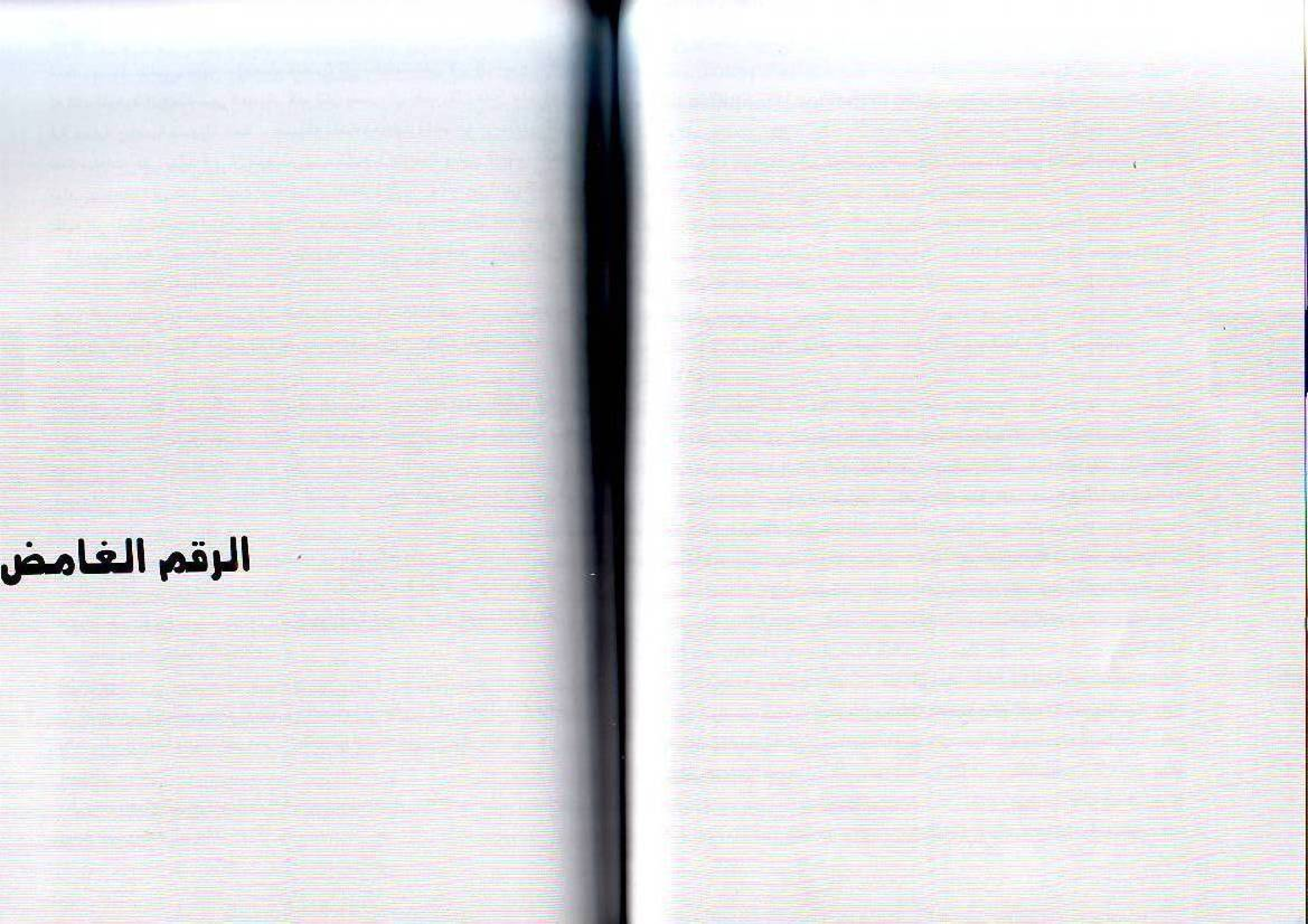
«لن يحدث هذا ... إنهم اعتقلوا في المطار رجلاً يمكن أن يكون (والتر كاوفمان) هذا .. سوف نذهب حالاً لتقصي الأمر لكني أعتقد أنه سقط في الشرك»

«قبل أن تذهب للمطار يجب أن تفتشوا السينما جيدًا ..»

ووضعت السماعة .. واتجهت للباب .. قبل أن أغادر المكان نظرت إلى (عصام) الذي نسي كل شيء عن الموضوع وعاد إلى معادلاته المعقدة على شاشة الكمبيوتر ..

قلت له همسًا وبصوت لن يسمعه حتمًا:

«شكرًا لك !»



الرقم الغامض

كما قلت في لقائنا الأول: إن ذكاء الأرقام صفة أقدرها بشدة وأدرك أنني لم أحظ بقسط مناسب منها .. (عصام فتحي) كان يختلف عني في كل شيء .. كانت له تلك الموهبة الرقمية غير العادية، فلم يكن ينسى أي رقم، وكان قادرًا على إجراء أية عملية رياضية بسهولة تامة .. حسدته لفترة وحاولت منافسته . استغرق الأمر عدة سنوات حتى بدأت أرى أن موهبته شيء كأنوفنا وشعورنا وطول قامتنا .. نحن نولد بها وعلينا أن نقبل حقيقة امتلاكها أو افتقارنا إليها.. دعك من أنني كنت أتفوق عليه في نقاط أخرى.. لم يكن يتذوق الشعر أو يفهمه ..لم يستوقفه قط جمال فتاة .. لم يلعب لعبة رياضية في حياته .. لكن علاقتنا لم تنقطع قط .. كان يكمل ثغرات عقلي وكنت أكمل ثغرات شخصيته ..

كنت أتردد على داره حيث تفتح لي الباب (عفاف) فتضحك في حرج، وسرعان ما تنقل لي تقريرًا سريعًا عن سيدها ومريضها وصديقها .. كانت تقول لي همسًا وبسرعة:

«إنه مقل في الأكل هذه الأيام .. لا أعرف السبب .. أعددت له بعض حساء الخضر لكنه لم يلتهم إلا بضع ملاعق .. يكثر من القهوة .. أرجو أن تنصحه بأن هذا سوف يؤذيه .. هه ؟.. أنا لم أقل لك شيئًا ..»

وسرعان ما اقتادتني إلى حجرته .. أنا الشخص الوحيد الذي يحق له أن يأتي في أي وقت وبلا موعد سابق ..

على مقعده المتحرك هش وبش عندما رآني، فقلت له:

«لا أعرف السبب في فقدان الشهية الذي أصبت به .. قرأت في مجلة طبية أن الإفراط في القهوة يسبب سرطان البنكرياس.. لا أريد أن أبدو كغراب البين لكن السرطان يسبب فقدان الشهية»

قال باسمًا:

«لا أعرف من أين تأتي بهذه الأخبار .. لابد أنها (عفاف).. إنها تتعامل كأنها أمي بالضبط ... مهما أكلت تصر على أن شهيتي ليست على ما يرام ..»

قلت في خبث:

«كل رجل يحتاج إلى أم وممرضة وممثلة سينما حسناء .. طوبى للرجل الذي يجد زوجة تجمع هذه الصفات جميعًا ..»

دفن وجهه في أحد المراجع الرياضية العملاقة المتراصة على المكتب وقال:

«هراء .. على فكرة أنت تهذي .. هناك رجل يدعى (ثروت) يتصل بها كثيرًا هذه الأيام .. يحمر وجهها ويتحول صوتها إلى همس .. لو كنت أكثر حزمًا لطلبت منه ألا يتصل بي في بيتي»

ثم قال بلهجة درامية:

«هي أنثى .. أنثى كاملة .. تحتاج إلى شاب كامل مثلها .. وليس من هو مثلي .. مجرد عقل على مقعد متحرك»

كانت الأخبار غريبة بالنسبة لي .. إذن أنا أحمق والأغرب أن زوجتي (غادة) حمقاء .. كنت أحسب النساء لا يرتكبن أخطاء في هذه الأمور ..

قلت له:

«ما علينا .. »

«لا يبدو عليك أنك أتيت اليوم تطلب رأيي في قضية ما ..»

هززت رأسي وحمدت الله على أن الحال ليس كذلك .. من الجميل أن يكون سبب مجيئي هو الصداقة لا أكثر .. أتمنى لو جربت هذا مرة واحدة على الأقل ..

هكذا جلسنا نلعب الشطرنج .. من المستحيل أن تهزمه لكنه يجيد برمجة عقله على مستويات أقل .. مثلما يقلل الأجانب سرعة كلامهم عندما يتكلمون معك كي تفهمهم ..

ظللنا نلعب الشطرنج نصف ساعة، إلى أن طرقت (عفاف) الباب وقالت في تهذيب:

«(عصام).. إن (ثروت) يريد الكلام معك !»

••••••

تصلبت وتصلب (عصام) ونحن ننظر إلى ما وراء كتفها، حيث وقف ذلك الرجل النحيل الأسمر .. هل بلغت الجرأة به هذا الحد ؟.. هل ينوي أن يطلب يدها من (عصام) ؟.. إذن لابد أنه مخبول ..

قال (عصام) في حدة:

«(عفاف).. قلت إنني لا أتلقى زيارات إلا بموعد مسبق ..»

قالت في استعطاف:

«أرجوك .. إنه قريب لي وهو في ورطة حقيقية»

(عفاف) قريبة لي من بعيد .. معنى هذا أن (ثروت) هذا قريبي بشكل ما ..

هكذا هز (عصام) رأسه الضخم .. نزع عويناته ليمسحها بمنديل ورقي ثم أعادها إلى أنفه، على حين دخل (ثروت) الغرفة ..

رجل نحيل أسمر كما قلت .. يلبس قميصًا أنيقًا غالي الثمن لكنه يحتاج للكي .. في عينيه نظرة ذابلة ذاهلة .. وبدا لي كئيبًا إلى حد لا يصدق .. هذا الرجل لا يمكن أن يلعب دور فارس الأحلام أبدًا .. هناك شيء واحد يجمع هؤلاء الذين يجذبون النساء .. الحيوية .. قد يكون الرجل قبيحًا كالأبالسة أو وسيمًا كالملائكة، وقد يكون بدينًا كخنزير أو نحيلاً كثعبان المرجان، لكنه في جميع الأحوال يجب أن يتمتع بالحيوية كي تنظر له النساء أصلاً...

جلس (ثروت) على مقعد جوار الباب ومسح أنفه .. استطعت أن أرى في يده اليسرى ذلك الخاتم الذي يقول بوضوح إنه ليس فتى أحلام (عفاف)..

قالت (عفاف) في حماس:

«سيحكي لكم قصته بنفسه .. إنه يحاول مقابلتك منذ أيام لكني بصراحة حاولت التنصل من الأمر ثم وجدت انك أكثر لطفًا من أن تتضايق لهذا ...»

ساد الصمت بينما تكلم (ثروت) بصوت مبحوح جدير بأن يخرج منه:

«أقدم لكم نفسي .. أنا (ثروت أبو مندور).. متزوج ولدي طفلان .. كنت أعمل مدرس رياضيات ..»

ابتسم (عصام) في انتصار وقال:

«نحن إذن زميلان بشكل ما ..»

«كنت .. لقد تغيرت حياتي منذ ثلاثة أشهر .. كنت أمشي شارد الذهن في وسط المدينة .. لابد أن الإشارة كانت خضراء للسيارات لكني لم الحظ هذا .. في لحظة من اللحظات سمعت فرملة عالية، ووجدت نفسي على الأرض بين أقدام المتزاحمين صداع هائل يغمر رأسي .. وكان هذا آخر ما استطعت أن استوعبه .. فقدت الوعي .. في المستشفى أفقت لأجد زوجتي وأطفالي حولي ..»

نظرت لـ (عصام) نظرة ذات معنى فبادلني إياها .. واضح أنني وزوجتي عبقريان .. هذا الـ (ثروت) لا يشكل خطرًا من أي نوع .. زوجة وأطفال ... هذا كثير ..

واصل (ثروت) كلامه:

«عرفت أنني أصبت بارتجاج في المخ.. لابد أنني كنت في خطر داهم ليوم كامل، لكني في النهاية ثبت إلى رشدي وغادرت المستشفى وسط المهنئين .. فقط كنت أعرف يقينًا أن شيئًا في عقلي لم يعد كما كان ..

«كانت هذه بداية العام الدراسي، وهنا عرفت حجم المشكلة .. إنني أقف أمام لوح الكتابة في الصف فأكتب بداية المعادلة .. ثم أصل لآخرها فأنسى ما بدأته .. أبدأ العبارة وأنسى ما كنت أريد قوله .. صار التدريس عذابًا ، وقد قبل المدير أن يمنحني سنة إجازة بدون راتب .. »

قال (عصام) شارد الذهن:

«كلمني أنا عن الحوادث .. لكن (حادثي) لم يمس عقلي .. لقد قيدني إلى هذا المقعد بقية حياتي»

قال (ثروت) وقد احتشد الدمع في عينيه:

«لا أدري إن كان لي أن أحسدك !.. من الفظيع أن تدرك أنك غير قادر على التركيز ولا استجماع أفكارك .. هذا عذاب يفوق عذاب أن تجد نفسك سجين مقعد متحرك .. هناك من الأطباء من يؤكد أن الأمور ستتحسن مع الوقت ومع التدريب الذهني، لكن ورطتي اكبر من هذا .. أنا أحتفظ بكل مالي في المصرف تحت رصيد ائتمان .. ولكي أتمكن من التعامل مع هذا الرصيد عبر الصراف الآلي لابد لي من أن أتذكر رقمًا سريًا من أربعة أعداد .. طبعًا نسيته تمامًا .. معنى هذا أنني مفلس فعلاً..»

قلت أنا وقد بدا لي هذا غريبًا:

«يمكنك أن تطلب منهم في المصرف أن يعطوك رقمًا جديدًا»

قال (ثروت):

«هذه مشكلة أخرى .. لا اذكر كيف كنت أوقع .. هناك طريق قانوني معقد لإثبات أنني هو أنا . لكني لا استطيع الانتظار .. زوجتي لا تعمل وأنا فعليًا مفلس .. »

قالت (عفاف) التي ابتلت عيناها من فرط التعاطف:

«هذا جاءك يطلب رأيك ..»

قال (عصام) في حيرة:

«لا أدري كيف تطالبني بمعرفة رقم نسيته أنت ..»

قالت (عفاف):

«ربما لو جرب بعض التباديل والتوافيق .. »

ضحك (عصام) حتى سالت عيناه وقال:

«هل تعرفين عدد التباديل والتوافيق لعدد رباعي ؟.. سوف يقف بقية حياته أمام الصراف الآلي يجرب .. 1111.. ثم 1112 .. ثم 1113 .. الخ .. أعتقد أنه من الأسهل أن يفتش بين أوراقه .. من الصعب ألا يكون قد دون الرقم السري في مكان ما .. الحماقة كل الحماقة أن يكتفي المرء بذاكرته في هذه الأمور ..»

قال (ثروت):

«للأسف .. يبدو أنني اعتمدت بالفعل على ذاكرتي ..»

-«إذن أنت أحمق أو كنت كذلك..»

ثم فكر حينًا .. وقال:

«من المعتاد ألا يحمل المرء البطاقة والرقم السري في مكان واحد .. هذه حماقة لأنها هدية للصوص .. لكني أرغب في أن أفتش حافظتك بعناية .. هل تسمح لي ؟»

«بالتأكيد ..»

وبيد مرتجفة أخرج البائس حافظته وراح يرص محتوياتها على المنضدة .. صورة لزوجته وأطفاله .. إيصال .. تذكرة سينما .. بطاقة هوية .. آية قرآنية صغيرة .. ثم البطاقة اللعينة التي صارت بلا قيمة ..

راح (عصام) يتفحص الأوراق .. ثم أمسك بتذكرة السينما وقال:

«من الغريب أن يحمل المرء معه تذكرة سينما ... إلا في حالة ما إذا كان دون عليها شيئًا مهمًا ... كان أحمد شوقي الشاعر يدون بدايات قصائده على علبة تبغه قبل ان ينسى ..»

ثم قلب التذكرة وقرأ بصوت عال:

«هناك كتابة بخط اليد تقول: MMMM CCCC LV III»

قلت له في ضيق:

«واضح انه كان يجرب قلمًا جديدًا لا أكثر .. هذا لا معنى له ..»

نظر (عصام) للرجل في ثبات وسأله:

«هل تذكرك هذه الكتابة بشيء ؟»

قال في حيرة:

«لا .. اعتقد أنها هراء كما يقول السيد ..»

فكر (عصام) حينًا ثم قال:

«هناك شعب واحد استخدم الحروف اللاتينية كأنها أرقام .. الرومان .. لقد رمزوا لرقم خمسة بالعلامة V .. ورمزوا لرقم خمسين بالعلامة L.. ورمزوا لرقم 500 بالعلامة D .. حرف M معناه ألف .. وحرف C معناه 100 .. وموضع العلامة المجاورة يدل على وجوب الإضافة أو الطرح .. مثلاً العلامة V معناها خمسة .. عندما تأتي علامة الواحد I قبلها كان هذا دليلاً على رقم 4 .. ولو جاءت بعدها فنحن نتكلم عن رقم 6 ..

- الرقم الروماني MMMM CCCC LV III معناه ببساطة هو 8 زائد 50 زائد 400 زائد 4000 .. أي الرقم 4458 ..»

ثم نظر إلى (ثروت) المذهول وقال:

«هل تذكرت الآن ؟»

«لا ..»

«أنت مدرس رياضيات وهذه الأمور بديهية بالنسبة لك أو كانت كذلك .. كنت ترغب في أن تدون الرقم السري وفي الوقت ذاته لا تريد أن يكون واضحًا بالنسبة لمن يسرق حاجياتك .. هكذا دونت الرقم بهذه الطريقة التي يصعب فهمها على اللص العادي .. إن الأرقام الرومانية عسيرة الفهم وغير عملية على الإطلاق .. تخيل ناتج ضرب MMM CC V II في CCLXXV مثلاً ؟»

ثم قال وهو يعيد الحافظة له:

«اذهب الآن إلى المصرف وجرب هذا الرقم 4458 .. أعتقد أنه سيحل مشكلتك»

احمر وجه (ثروت) ونهض ملهوفًا .. كان الوقت متأخرًا لكن الصراف الآلي لا ينام ..

نظرت (عفاف) لـ (عصام) في إعزاز وتقدير ثم غادرت المكان ..

قلت له في خبث:

«أرى الرضا على وجهك .. لقد أسعدك أن تعرف الحقيقة ..»

«حقيقة الرقم الروماني ؟»

«بل حقيقة أن (ثروت) هذا متزوج ويعول .. ومفلس أيضًا !»

ولم انتظر لمعرفة رد فعله لأني بادرت بالفرار من الغرفة قبل أن يفتك بي ..

يوم الوحش

عامة لم أشعر بارتياح كبير لتلك الفتاة (ميليسا) التي عاد بها أخي من زيارته للولايات المتحدة .. إن أخي (مصطفى) من الطراز العاصفة إياه .. يفعل ويحب ويضرب ويقتل ثم يفكر .. كل كلامه صراخ ومشاعره بكاء وجدله عراك ..

في الثامنة والعشرين هو .. مهندس اتصالات في شركة مرموقة، وأعتقد أنه وسيم .. أقول إنني أعتقد ذلك لأنني أراه بعين الأخ الأكبر الفخور بكل شيء .. وكما يقول المثل الشعبي: «من يشهد للعروس غير أهلها ؟»

سافر (مصطفى) إلى الولايات المتحدة لمهمة تتعلق بالعمل .. طبعًا كانت هذه أول مرة يسافر فيها .. وكان غير متزوج مندفعًا لذا توقعت السيناريو الذي سيحدث..

سيعود بعد عامين وفي ذراعه (جين) أو (كاتي) أو .. أو .. وسوف يصارحنا بأنه يهيم بها حبًا وسيتزوجها، ولسوف تطلق أمي الكثير من الصراخ بلا جدوى لأنه – ذلك الأحمق – ترك ابنة عمته التي يعرفها ويعرف أهلها وأخلاقها .. وهو نفسه لن يكون واثقًا من عواطفه .. هل يحبها فعلاً أم هو انبهار بالحضارة الغربية أم هو انبهار بالشعر الأشقر والبشرة البيضاء أم هي – في النهاية – مجرد وسيلة للحصول على الجنسية الأمريكية ؟

هذه المرة لم يعد لنا (مصطفى) بـ (جين) أو (كاتي) – وليته فعل – بل عاد لنا بـ (ميليسا)..

عاد لنا بفتاة نحيلة تطلي أظفارها بلون أسود وتثبت حلية إلى أنفها ، وتضع طلاء شفاه أسود .. مما أضفى عليها طابع سحلية الأجوانا .. هذه هي (ميليسا) التي يريد الزواج منها ..

قلت له في ذعر:

«هذه الفتاة تبدو كمطربي الروك المجانين الذين تراهم في التلفزيون .. سوف تصاب أمك بنوبة قلبية لو رأتها ..»

قال في مرح:

«يجب أن تتعلم أمي أن تقيم الإنسان بطريقة تفكيره لا طريقة ارتدائه للثياب ..»

في الأيام التالية لاحظت أنه منبهر بها جدًا .. وأنها تسيطر عليه وأن أمي قد اعتكفت في حجرتها تقرأ القرآن ولا تعلق .. استسلام تام لفكرة أن تنضم هذه السحلية إلى بيتنا ..

من يدري ؟.. ربما كنت أنا عجوزًا متخلفًا كما يقول ..

قال لي (مصطفى) ذات مرة:

«عيد ميلاد (ميليسا) قادم .. إنه في السادس من يونيو .. تريد أن نذهب معًا إلى (المنيا) لنمضيه هناك ..»

تمضية الصيف في المنيا ؟.. ألا يبدو هذا غريبًا ؟.. سوف يشويك الحر خاصة أن الفتاة ليست من بيئة حارة أصلاً.. هذا يذكرني بالثري البخيل الذي يحاول بيع أجهزة تكييف في القطب الشمالي وأجهزة تدفئة عند خط الاستواء ..

«هل جننت ؟»

«تريد أن ترى بلدة اسمها (تونة الجبل) جوار المنيا .. حسب ما فهمت من كلامها كانت (تونة الجبل) فى الماضى تحد مدينة (أخيتاتين) كما كانت أيضاً جبانة مدينة (هيرموبوليس) المجاورة.. إن (هيرموبوليس) تبعد خمسة كيلومترات شمالي (ملوي) و(تونة الجبل) ستة كيلومترات غرب (هيرموبوليس)... (هيرموموبوليس) كانت مركز عبادة (تحوت).. وهي تتحرق شوقا لزيارة هذا المكان كهدية في عيد ميلادها ..»

بصراحة لم أشعر براحة لهذه القصة .. عندما يأتي هذا الاهتمام من عالمة آثار او امرأة وقور في الستين فأنت تقبله، لكن من العسير أن تتصور أن هذه السحلية المصبوغة تهتم بالتاريخ الفرعوني .. هل تفهم قصدي ؟.. التنميط مهم جدًا في عملنا كرجال شرطة .. رجل وقور أشيب يهتم بآخر أغنية لـ (تامر حسني).. هل هذا معقول أو يمكن ابتلاعه ؟.. نفس الشيء هنا ..

كنا في أول يونيو .. وقد أبديت لأخي مدى تشككي من هذه الفكرة الغريبة ..

عندما قابلته مع تلك الفتاة في ذلك اليوم رحت أتفحصها في دقة .. لقد وصفتها لك، لكني لا أفهم سر ذلك الولع برقم 6 في كل شيء تلبسه .. السلسلة على صدرها تحمل رقم 616 من الذهب .. هناك وشم على معصمها برقم 616 ... وشم على أعلى كتفيها بذات الرقم ..

ثم ذلك التاريخ الغريب لعيد ميلادها القادم.. 6 يونيو 2006 .. بعبارة أخرى هو 6 .. 6 .. 2006 ..

القصة كلها غريبة حقًا ..

قالت لي وهي تميل برأسها على كتف أخي:

«سوف ننطلق إلى (ملوي) لنقضي أجمل عيد ميلاد .. ثم نعود لنتزوج ونرجع إلى

الولايات ..»

قال أخي في بلاهة:

«هيء هيء ..»

كانت زوجتي حاسمة حازمة في رأيها في (ميليسا) وأخي:

«فتاة رقيعة تشبه الدودة وأخوك عبيط»

للمرة الأولى أوافقها بشدة على رأي .. يجب أن أفهم القصة أكثر ..

هناك أرقام في الموضوع .. وهذا يعني أنني المحظوظ الوحيد الذي يملك حجة مطلقة في الأرقام .. الشخص الذي لم أزره قط إلا وخرجت من عنده بالجواب عن أسئلتي ..

••••••

كان (عصام) صديقي العبقري القعيد يلتهم عشاءه، وأصر على أن أشاركه .. طلب من (عفاف) أن تحضر طبقًا آخر من البيض والبسطرمة .. قلت له إنني لا أتمتع بأية شهية .. أنا قلق على أخي .. لقد نادته النداهة كما في الأساطير الريفية المصرية ولن يعود على الأرجح ..

«كنت أخشى أن يعود لنا بـ (جين) فعاد لنا بهذه الـ (ميليسا)..»

قال (عصام) وهو يدس شوكته في مزيد من البسطرمة:

«إنه التعصب .. أنت لا تتوقع أن يجد سعادته مع غربية ..»

نظرت من تحت لتحت لـ (عفاف) وقلت لنفسي إن هذه الفتاة كفيلة بأن تسعد أي رجل .. جميلة نظيفة باسلة مخلصة .. لا يتعلق الأمر بكونها عربية .. يتعلق الأمر بكونها أنثى فعلاً وليست سحلية مصبوغة ..

شرحت له الأسئلة التي تدور بذهني .. فأبطأ نوعًا من سرعة المضغ وراح يصغي في اهتمام .. فلما فرغت جفف فمه وحمد الله على الوجبة الشهية وقال:

«الرقم ستة ذو أهمية شديدة في الثقافة البشرية .. والشعوب تتعامل معه بطرق مختلفة .. مثلاً هناك قبيلة أفريقية تطلق على رقم ستة لفظ (إفا).. عندما يعجب الشاب بفتاة يقدم لها ست أصداف .. فترد عليه بثمان .. هل تعرف السبب ؟.. لأن نطق رقم ستة عندهم هو نفسه نطق كلمة (ارتباط).. ونطق رقم ثمانية هو نفسه نطق كلمة (موافقة).. الرقم أربعة – على سبيل المثال – رقم مشئوم لدى الصينيين لذا يندر أن يستعملوه في أسماء الأماكن .. إن نطقه يشبه نطق كلمة (الموت)..

بينما هم مولعون برقم 168 .. لأن نطقه هو ياو ليو با .... يشبه هذا النطق تعبير (السراط المستقيم).. تسعة رقم إمبراطوري لديهم، لذا كان من يستعمل رقم 9 على ثيابه يعاقب بالإعدام هو وأسرته !... «

قلت له وأنا أفرغ طبقي في عصبية:

«وحياة والدك لا أريد تفاصيل .. فقط أريد تفسيرك لشخصية هذه الفتاة المولعة برقم 6»

قال في خبث وشبح ابتسامة على شفتيه:

«هذا يحتاج إلى أن ترجع إلى الكتاب المقدس .. 666 حسب الكتاب المقدس هي (سمة الوحش).. والثقافة الغربية تربط هذا الرقم بالشيطان .. قيل إن هذا الرقم يرمز لضد المسيح Antichrist وهو قريب من المسيخ الدجال عندنا .. أو يرمز لخادمه الذي يحمل هذا الرقم على جلده أو على شكل وشم .. سوف تعرف الكثير من هذا الكلام لو دخلت مواقع (شهود يهوه) على شبكة الإنترنت .. (كراولي) الساحر الشيطاني الشهير كان يدلل نفسه باسم 666 .. «

قلت له:

«لكن الفتاة لا تحمل رقم 666 بل 616 ...»

«أغلب دارسي الكتاب المقدس رأوا أن رقم 616 هو الأكثر دقة .. وهنا نأتي إلى يوم 2006/6/6 الذي هو عيد ميلاد الفتاة كما تزعم .. إنه (يوم الوحش) كما يعتقد بعض المتنبئين .. يوم ظهور (ضد المسيح).. «

كان رأسي يوشك على الانفجار .. فسألته :

«وما معنى هذا ؟»

«ألا تفهم ؟.. عندما تقابل فتاة تلبس بهذه الطريقة وتستعمل رقم 616 وتزعم أن عيد ميلادها هو يوم الوحش، فماذا تتوقع ؟.. إنها من عبدة الشيطان .. أخوك الأحمق اختار عابدة شيطان لتكون أمًا لأطفاله !!»

كنت أتوقع شيئًا من هذا القبيل على كل حال ..

«وما دخل رحلتها إلى (ملوي) في الموضوع ؟»

«معبد (تحوت) القديم ومدينة (هرميبوليس).. كل الشيطانيين في العالم يعتقدون أن (تحوت) كتب (الهرميتات) كتابه السحري الخاص وأخفاه هناك .. سوف ترى الكثير من تماثيل قردة البابون هناك، وهي الصورة التي تخيل بها المصريون إلههم (تحوت)

والذي اعتقد الإغريق أنه إلههم (هرميز) .. هذه الفتاة الشيطانية تريد زيارة معبد تحوت يوم الوحش مصطحبة أخاك الأحمق .. فلم ؟»

لم ؟.. لا أعرف .. لكني لن أبقى هنا بانتظار الإجابة ..

هكذا وثبت من مكاني قبل أن أنهي الطعام ..

انطلقت ركضًا إلى سيارتي، وقدتها مسرعًا إلى الفندق الذي تقيم به تلك الفتاة .. بحثت عن اسمها في الدفتر، فوجدت أنها تقيم في غرفة رقم 616 .. طبعًا !! ..

قال لي موظف الاستقبال إنها أصرت على حجز هذه الغرفة بالذات هاتفيًا قبل أن تأتي لمصر ..

انطلقت إلى المصعد .. وسرعان ما كنت أقف أمام باب الغرفة أدق الباب ..

سمعت صوتًا يقول بالإنجليزية إنه قادم .. ثم انفتح الباب لأجدها أمامي بذات ملامحها العظمية القبيحة التي زادها الطلاء قبحًا .. كانت تنظر لي في دهشة وارتباك ..

لم أنتظر وخطوت إلى الداخل .. وفتحت فمي مذعورًا .. لقد رفعت السجادة، وعلى الأرض العارية كان أخي يرقد على ظهره فاقد الوعي على شكل الرجل الفيتروفي - إن كنت قرأت (شفرة دافنتشي) – وقد رسمت حول أطرافه شكل النجمة الخماسية .. كانت هناك شموع عند رءوس النجمة .. الجو كله لعين كريه يثير الرعب ولا شك ان إدارة الفندق ستصاب بالهلع لو رأت ما يحدث هنا .. واضح أنها ستزيل أثر هذا كله فور الانتهاء ... الانتهاء من ماذا ؟

قالت لي في تحد:

«سوف تدفع ثمن هذا الـ ..»

لكني ضربتها ضربة قوية بكوعي فتكومت على الأرض وهي تئن. وانحنيت أعين أخي على النهوض، ووضعت ذراعه على كتفي واقتدته وهو يترنح نحو الباب .. لا بأس .. هذا الفندق يقدم الخمور ولسوف يحسب من يروننا أنه ثمل ..

قال لي وهو مغمض العينين:

«ماذا حدث ؟»

«لا أدري .. لكنه شيء مخيف .. وأعتقد أننا أفسدنا هذا الحفل ..»

قال كالحالم :

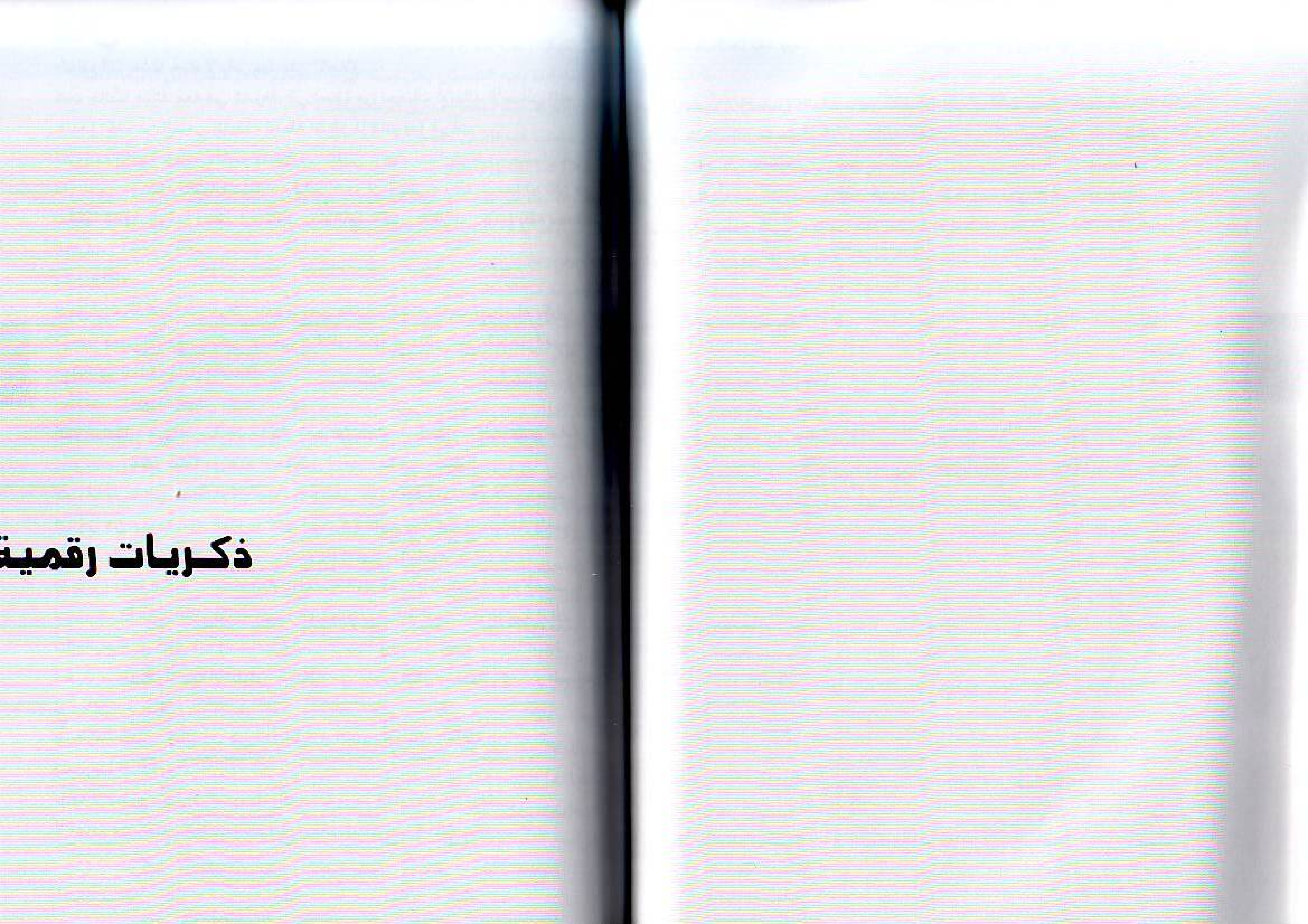
«آخر ما أذكره أنها أصرت على أن أشرب معها بعض العصير في غرفتها .. لم تكن

هذه أول مرة»

«إن عيد ميلادها بعد يومين .. وكانت تعدك لشيء ما مهم يتم في معبد (تحوت) في المنيا ..»

سأظل مدينًا لـ (عصام) كالعادة .. هو الذي أخبرني أن الأمر يتجاوز ذوقًا شاذًا في اختيار الثياب إلى ما هو أخطر .. لا أريد التفكير فيما كان يمكن أن تعمله (ميليسا) بأخي هناك في (هرموبوليس) هذه ..

لن افعل شيئًا آخر فلن يصدق أحد قصتي .. فقط يسعدني أن السادس من يونيو قد مر ولم يحدث شيء .. فلتعد هذه الشيطانة لبلادها وحدها .. لقد فوتنا عليها فرصة أن يكون يوم الوحش أهم أيام حياتها ..



ذكريات رقمية

قال لي وهو يرمق شمس الغروب:

«الواقع أننا عشنا حياة لا بأس بها على الإطلاق ..»

كنت جالسًا هناك معه في الشرفة، في لحظة من لحظات الإنهاك الإنساني تلك .. عندما تكف عن السعي وتتوقف لحظة لتنظر لما فات وما هو آت ...

لكن هذه النغمة جعلتني أشعر بغصة في حلقي .. هذه نغمة شيخين يجلسان في دار المسنين ينتظران النهاية .. بالنسبة لي أشعر أن حياتي ممتدة .. ربما لم تكن في بدايتها لكنها على ما أعتقد ليست قرب نهايتها .. على الأقل لو تكلمنا بلغة معدلات الوفيات ..

رحت أتأمله ..

الحق أن جزءًا كبيرًا من حياتي يتلخص في هذا الـ (عصام فتحي).. ولو لم يكن موجودًا فعلى الأرجح لن يكون بوسعي أن أطلق لفظة صديقي على شخص آخر.. أنا رجل كثير المعارف قليل الأصدقاء .

ربما بسبب طبيعة عملي ...

أذكر مراهقتنا في المدرسة عندما كان (عصام) يتمتع باستخدام ساقيه، وكان أمامه نحو خمس عشر عامًا من هذه المتعة قبل أن يفقدها في حادث السيارة ..

كنت أنا بارعًا في استخدام كل جزء من جسدي عدا العقل، وكان هو لا يستخدم أي جزء من جسده سوى العقل .. كنت أجيد كرة القدم والملاكمة والسباحة، وأحب بإفراط، وأصغي لكل الأغاني بدءًا بـ (عدوية) وانتهاء بـ (بيتهوفن)..

(شيرين) فاتنة الكلية .. أستاذ (عامر) بعصاه الغليظة .. (إسماعيل) فتوة الصف ضخم الجثة الذي اعتبر نفسه زعيمًا لنا لمجرد أنه يملك العضلات اللازمة لذلك ..

ذلك اليوم الذي أغلق فيه (إسماعيل) الصف علينا وراح يدق بيديه على المنضدة محدثًا صوتًا كفيلاً بإيقاظ الموتى، مع غناء من عقيرة تذكرك بصوت الحمير المصابة بسرطان الحنجرة ..

صخب .. جنون .. والسبب في أننا شاركناه الجنون هو تلك الطاقة الزائدة التي يتمتع بها المراهقون ..

طاقة لا مخرج منها إلا الضوضاء والصخب وربما إيذاء الآخرين والنفس ..

لا أعرف متى صعد فوق المنضدة وراح يرقص ونحن نشاركه التصفيق ..

الباب يدق .. يتزحزح .. لكنه موصد من الداخل .. لا أحد يسمع ..

في النهاية انفتح فجأة وتسمرنا ..

لو إننا رأينا وجه الشيطان يطل وسط نيران الجحيم لكان منظرًا أقل ترويعًا، لكنه كان وجه الأستاذ (عامر) مدرس الرياضيات ..

كان غاضبًا كما لك أن تتصور ..

محمرًا كما لك أن تتخيل ...

وبسرعة عاد من كان فوق المنضدة إلى الأرض، وأخفى من كان يصفق يديه.. قال لنا الرجل وهو يقاوم النوبة القلبية الوشيكة:

«مجرد أوغاد ..

مجموعة من الأوغاد ...

لا أدري في أية بيئة نشأتم ولا ماذا علمكم آباؤكم !»

ثم أعلن أنه سينزل بنا عقابًا مروعًا ..

عقابًا سوف تذكره مهنة التعليم للأبد ...

«أنتم كذلك مجموعة من الحمير ... لا تفقهون شيئًا ... »

بدا يهدأ قليلاً ويتكلم كلامًا مفهومًا .. في النهاية وقف أمام لوح الكتابة وقال:

«ساعرض عليكم مسألة صغيرة ...

مسألة ذكاء لا أكثر ...

ولسوف تجدون أن قلة الأدب لا تبقي للذكاء شيئًا ..

أنتم مجرد أغبياء ناقصو التربية وهذا ما سوف تعرفونه حالاً..»

ثم قال بلهجة المنتصرين:

«ما مجموع الأعداد من واحد إلى مائة ؟..

أريد إجابة حالاً...»

1 + 2 + 3 + 4 + ...

رباه !.. هذا يستغرق دهرًا ...

هناك على ما أذكر حل يتعلق باللوغاريتمات لكن لا أذكره ..

هكذا بدا واضحًا أننا فشلنا قبل أن نبدأ ..

الرجل معه حق ...

في هذه اللحظة نهض (عصام) وقال في أدب وبصوت خفيض:

« 5050 ...»

اتسعت عينا الرجل المخيفتان وعاد يسأله:

«كم ؟»

«5050 ..»

بدا على الرجل انه حائر .. هل هذه هي الإجابة الصحيحة فعلاً ؟..

وجهه يقول إنها كذلك .

هنا عاد يسأل:

«وما مجموع الأعداد من واحد إلى ألف ؟»

بلا لحظة تفكير قال (عصام):

«500500 »

راح الرجل يرغي ويزبد، واتهم (عصام) بأنه مجرد غبي يحفظ الإجابة بلا تفكير حقيقي ..

في هذه اللحظة دق الجرس فأنقذنا..

مما ذكرني بتعبير الملاكمة الغربي : أنقذه الجرس ....

نسى الأستاذ (عامر) قصة الشغب ولم يبق إلا انبهاره بهذا الصبي النحيل العبقري الذي هو – برغم كل شيء – قليل الأدب بالتأكيد ...

أما (عصام) فقد صار بطلنا لذلك الأسبوع ..

عدت من أرض الذكريات إلى جلستنا في الشرفة في الزمن الحاضر فقلت لـ (عصام) :

«تصور أنني لم أعرف منك الإجابة قط ..»

«أية إجابة ؟»

«الطريقة التي حسبت بها مجموع الأعداد من واحد لمائة ومن واحد لألف .. أستاذ عامر .. »

تذكر القصة كلها فبدا عليه كأنه يزيح جبلاً من الزمن عن ذكرى قديمة، وقال:

«الأمر سهل .. عندما ترغب في معرفة مجموع الأعداد من واحد لعشرة اقسم عشرة على 2 ثم ضع الرقمين متجاورين .. أي 55 ...

من واحد لمائة اقسم مائة على اثنين وضع الرقمين متجاورين .. 5050 ..

وهذا ينطبق على ألف وعشرة آلاف ...!

هذه أمور بديهية ويدهشني أن الناس لا يعرفونها ..»

يا إلهي !... إن هذا صحيح !...

قلت له وقد تذكرت قصة أخرى:

«برغم عبقريتك أخطأت في حساب العظام في ذلك اليوم .. عندما زرنا أختك في دارها بعد ما أنجبت»

ابتسم في غموض ولم يعلق ..

كنت فردًا من أسرة (عصام) بحكم الصداقة، وكانت أخته (هالة) متزوجة من مدرس أحياء فيه شيء من السماجة ..

يكثر من الدعابات الغليظة السخيفة ..

جلسنا هناك نهنئ الأم بوليدها الرقيق الهش ..

وكنت قد جلبت لها علبة من الشيكولاته كما هي العادة .. جلس الزوج بمنامته (الكستور) ذات الخطوط الخضراء التي تميز ثقيلي الظل، وراح يوجه لكماته الثقيلة ذات اليمين وذات اليسار، ثم قال في فخر:

«لقد أنفقت على هذا القرد الصغير مبلغًا لا بأس به بين السبوع ومصاريف المستشفى..

هل تعرفون كم ؟...

إنه عدد عظامنا جميعًا !»

ساد الصمت ..

دعابة علمية أخرى من الخير عدم التعليق عليها، لكن (عصام) طالب المدرسة الثانوية قال في ثبات:

«صرفت 1124 جنيهًا ؟..

أنت دقيق في الحساب ..»

كان هذا مبلغًا فادحًا بمقاييس تلك الأيام على كل حال ..

لكن الزوج قال في سخرية:

«بل 1030 جنيهًا ..

حسبتك أذكى من هذا ..»

ثم غمغم لزوجته في تهكم:

«لا تعرفين أبدًا ما يعلمونه للصبية في المدارس هذه الأيام !»

لم افهم تلك العملية الحسابية التي قام بها كلاهما، والتي يختلفان عليها ...

آثر (عصام) الصمت وظل صامتًا بعد كل هذه الأعوام، لكنه في هذه الليلة وقد أثرت القصة من جديد قال:

«كنت دقيقًا كعادتي لكنه جاهل مغرور ... عدد العظام في الجسم البشري 206 وكنا نحن خمسة .. هو وأنا وأنت وأختي والرضيع .. أراد أن يبهرنا فضرب 5x206 فكانت النتيجة 1030 وهو بالصدفة المبلغ الذي أنفقه فعلاً.. ما فاته هو أن عظام الرضيع تكون 300 عظمة ثم يلتحم بعضها فيما بعد ..

إذن 4x206 ثم أضف 300 ليكون الناتج 1124»

.«واستطعت أن تصبر فلا تصحح له المعلومة ؟»

«أثار غيظي بكل هذه المباهاة والغرور، فقدرت أنه لا يستحق هدية المعرفة !»

كان الغروب قد ولى ليحل محله الليل الحزين الأزرق البارد ...

سمعنا صوتًا يتحرك في الشرفة ثم ظهرت (عفاف) في الظلام، وكانت تحمل مجموعة من الأوراق في يدها .. قالت في شيء من الاعتذار:

«معذرة للمقاطعة، لكن البواب يطلب 317 جنيهًا ...»

«هذه أخبار قاسية لبداية الأمسية .. والسبب ؟.. هل هو مزاجه الخاص ؟.. هل شعر فجأة بالشهوة لامتلاك 317 جنيهًا ؟»

«مبلغ 27 جنيهًا شهريًا رسوم تنظيف الدرج .. هذه فواتير أحد عشر شهرًا ...»

أكره تراكم الفواتير بشدة .. عندما تكتشف أن عليك أن تدفع مبلغًا يتجاوز الثلاثمائة بدلاً من 27 جنيهًا ...

لكني فتشت في جيبي عن المال ورحت أعده كي لا أضطر (عصام) إلى مغادرة الشرفة، لكن (عصام) قال لي في ضيق:

«ألا تتأكد أولاً من صحة الرقم الذي يطلبه ؟»

قلت في ضيق:

«لو كنت تتوقع أنني سأطلب قلمًا وورقة لأضرب 27x11 في هذا الظلام فأنت مخطئ .. الرجل لن يسرقك»

«الناس إما لصوص أو جهلة بالحساب ... وكلاهما خطر على حافظتك .. إن حساب هذا الأحمق أو اللص 297 جنيه فقط .. »

صدقته بلا تدقيق وعددت المبلغ ونقدته (عفاف) .. فلما انصرفتْ سألته في غيظ:

«لا تقل لي إنك تحفظ جدول ضرب 27 .. فلم تطلب ورقة وقلمًا»

قال باسمًا في الضوء الخافت:

«الأمر هو البساطة ذاتها .. عندما تضرب أي عدد ثنائي في 11 اكتف بأن تضع الرقم الأيمن في خانة الآحاد والرقم الأيسر في خانة المئات .. ثم اجمع الرقمين في خانة العشرات ... إذن 27x11 معناها أن نضع 7 في خانة الآحاد و2 في خانة المئات .. ثم مجموعهما 9 في خانة العشرات ... 297 ... جرب أن تضرب 35 في 11 ... استعمل نفس القاعدة تكن النتيجة 385 ...»

جربت هذا عدة مرات ولابد أن الانبهار الأبله بدا على وجهي، فسمعته يضحك ويقول:

«أنا لم أجر أية عملية حسابية في هذا كله .. فقط أنا أستعمل قواعد محفوظة ثابتة وسهلة .. لم أعتبر نفسي عبقريًا قط .. أنا مجرد شخص يعرف كيف يستحضر المعلومة في الوقت المناسب ... »

ثم تثاءب ونظر إلى ساعته المضيئة وقال:

«كفانا ذكريات لهذه الأمسية ... أعتقد أن عندك مشكلة أخرى تريد أن تطلب رأيي فيها .. إذن تعال إلى الداخل ولتخبرني بكل شيء بهدوء ومن البداية ...»

رجل دقيق

قال لي (مدحت) في توتر:

«أعرف أنني أبدو جبانًا، لكن هذا لا يضايقني البتة .. بل أنا جبان بالفعل .. لكني أعرف كذلك أنني رجل دقيق لا يفوته شيء »

طلبت له كوبًا من الليمون عالمًا ان هذا سيزيد الأمور سوءًا .. ليمون الشرطة لا ينعش كأي ليمون في العالم، لكنه يعطي جوًا من التوتر وتقلصًا في المعدة كأنه حمض نتريك .. أذكر هذا منذ أيام الماضي عندما كنت أمام المدفع لا خلفه، وكنت أتوتر لدى تعاملي مع الشرطة في موضوع بطاقة شخصية أو رخصة قيادة ..

قلت له:

«نحن معك .. هذا سبب كاف كي تطمئن»

قال متوترًا:

«لكن الأخطاء تحدث .. لن تضعوا شرطيًا معي في فراشي .. هناك لحظة ما سوف تغيبون فيها عني وعندئذ ....»

كانت مشكلته هي أن (مختار) خرج من السجن .. ونحن نراقب (مختار) طبعًا لكن لا يوجد شيء ضده ... إنه يتصرف كأي مواطن آخر ..

قلت لـ (مدحت) وأنا أناوله لفافة تبغ:

«لا يمكن أن نسجن (مختار) لأنك تخافه ..»

«الرجل لا يمزح .. هذه هي المشكلة ..»

ولوح بالتقرير الطبي في وجهي .. للمرة العاشرة أرى هذا التقرير اليوم .. يبدو أنه يحاول إصابتي بالخبال ..

كان (مدحت) رجلاً في الخمسين من العمر .. ضئيلاً جاحظ العينين تبرز عروق صدغيه وتبرز أسنانه، مما يعطيه طابعًا خاصًا يذكرك بالقوارض .. اعتدت منذ زمن ألا أكون انطباعات عن شكل الناس، لكن شكله كان منفرًا يدفعك لمقته على الفور، خاصة مع صوته الأخنف وذعره الدائم الممل .. (فأر آدمي) .. هذه هي الفكرة التي جالت بذهني واستغفرت الله عليها كثيرًا .. لن اندهش لو دخل قط وابتلع الرجل في أية لحظة..

لكن (مدحت) كان مواطنًا، وكانت عنده مشكلة حقيقية ..

«في العام 1979 كنت أسكن في تلك الشقة المفروشة ، وكانت تسكن فوق شقتي

أرملة عجوز ثرية .. وفي ذلك اليوم المشئوم، كنت أعد طعام العشاء وحدي في شقتي عندما سمعت صوت دقات الهاون من الطابق العلوي .. اعتادت الأرملة أن تستدعيني بهذه الطريقة، وكانت لها طلبات عديدة أغلبها تافه .. تريد من يفتح لها أسطوانة الغاز .. تريد من يغلق لها المحبس .. تريد من يضبط لها التلفزيون .. كنت أقوم بهذه الأمور في رضا، لذا عندما سمعت هذه الجلبة هرعت لألبي نداءها ..

«لم أدر ماذا حدث ولا كيف حدث ... فعلى الدرج اصطدمت بـ (مختار) نازلاً من شقتها .. كان ابن أخيها وكان قوي البنية شرسًا، ولكني في هذه المرة لم أنظر لوجهه .. كنت أنظر لتلك المدية في يده والتي تلوثت بالدم.. كأنه نومني مغناطيسيًا للحظة، ثم صرخت مذعورًا: هل .. هل فعلتها ؟

«هنا أولج نصل المدية في أسفل صدري .. إصابة سطحية جدًا كما قال لي الطبيب فيما بعد .. وسرعان ما كان يثب الدرج نازلاً..

«برغم كل شيء قلت لنفسي إنني سليم .. سليم .. الإصابة سطحية وهو لم يؤذ شيئًا .. وكان تفكيري سريعًا جدًا ... تحاملت على نفسي إلى ان دخلت شقتي واتصلت برجال الشرطة .. ونسيت كل شيء عن ذلك الجرح ..

«عندما جاءوا رأوا المشهد المعروف الذي لن أصفه لك .. لقد قتلت السيدة في الحمام وكانت تحمل يد الهاون في يدها ترسل لي استغاثة أخيرة ... ليرحمها الله .. لقد قتلها ابن أخيها طمعًا في مالها، وبرغم هذا لم يجد عندها شيئًا ....

«بعد يوم قصدت طبيبًا ليفحص ذلك الجرح فقال إن المدية مزقت بعض الأنسجة في التجويف الثاني عشر بين الضلوع لكنها لم تمزق شريانًا أو وريدًا أو عصبًا، وكتب لي هذا التقرير .. وقد رأيت أنه لا داعي لذكر هذه الإصابة التافهة في مجرى التحقيق ..

«تم القبض على الفتى الذي أنكر كل شيء جملة وتفصيلا .. كنت أنا الشاهد الوحيد على رؤيته .. فيما عدا هذا لم يجدوا سلاح الجريمة ولا أي شيء ضده .. هكذا يمكنك أن تتصور حقده علي .. لولاي لما اتهمه أحد بأي شيء ...

«برغم كل شيء حوكم وحُكم عليه بالسجن .. وعشت أنا حياة طبيعية أحاول أن أطرد هذه الذكرى الكئيبة من ذهني .. إلى أن جاء الشهر الحالي ......»

قلت له للمرة الألف:

«عندما وجدت الرسالة ..»

قال وهو يرتجف:

«نعم .. رسالة وجدتها تحت باب بيتي الجديد الذي لا يعرفه أحد .. تقول الرسالة: لا تحسب أن الزمن يُنسي الأحقاد .. سوف تدفع ثمن الأعوام التي قضيتها في السجن بسبب كلب مثلك ..»

«عندها طار عقلك رعبًا »

«نعم .. نعم .. الرسالة مخيفة .. لكن اختفاءها أكثر بشاعة .. أنا أعرف يقينًا أنني أخفيتها في مكتبتي .. بالذات في كتاب (وصف مصر).. بين صفحتي 187 و188 .. أقول هذا لأؤكد لك أنني لم أنس شيئًا .. أنا رجل دقيق يا سيدي .. معنى أن أفتح الكتاب فلا أجد الرسالة أن هذا الرجل يملك الدخول إلى بيتي بسهولة تامة ..»

قلت في غيظ:

«بل هو ساحر كذلك .. أن يعرف أنك أخفيت الورقة في كتاب ويعرف ما هو الكتاب .. هل أنت متأكد من أن زوجتك لم تكن معك لحظة إخفاء الخطاب ؟»

«أنا غير متزوج .. قلت هذا عشر مرات ..»

«إذن هناك كاميرات مراقبة في غرفة مكتبك»

«لا هذا ولا ذاك .. أقرب الاحتمالات أن الحظ خدمه لأن الكتاب في موضع واضح مميز من مكتبتي .. على الأرجح كان يتصفح بعض الكتب فوجد تلك الرسالة بضربة حظ ..»

«ثم جاء موضوع الحريق ..»

ارتجف وشرب جرعة ليمون هائلة وقال:

«نعم .. نعم ... يبدو أنه فتح شراعة باب شقتي وسكب بعض الكيروسين، ثم ألقى عود ثقاب مشتعلاً.. صحوت من نومي لأجد الصالة تحترق .. جريت إلى باب الشقة ودفعته لأفتحه .. لكني لم أستطع .. إنه لا ينفتح .. يبدو أنه وضع شيئًا ثقيلاً خلفه .. هكذا جريت إلى الحمام وملأت دلوًا من الماء عدة مرات، وسكبته على النار حتى أطفأتها بالجهود الذاتية ..»

ثم لوح بالورقة وصاح في عصبية:

«هذا الرجل يجب أن يُعتقل .. أن يُعدم .. إنه قادر على التواجد في كل مكان وكل وقت .. في المرة القادمة سوف يفوز برأسي ولسوف تندمون يا حضرة الضابط .. ستندمون ...!»

ثم انفجر في البكاء ..

وسقط كوب الليمون على مكتبي ..

••••••

قال لي (عصام فتحي) وهو يغلق التلفزيون بجهاز التحكم عن بعد:

«ما زلت أرتجف رعبًا كلما رأيت فيلم (كيب فير) .. اللص الذي خرج من السجن لينتقم من محاميه وأسرته .. وقد اكتسب خبرات مهولة من السجن مما جعله شبه خارق للطبيعة .. الطريف هنا أنه لم يرد الانتقام من الشرطي الذي اعتقله ولا القاضي الذي حكم عليه .. كل هؤلاء في رأيه أدوا عملهم على أفضل وجه .. الحمار الوحيد الذي لم يؤد عمله جيدًا هو المحامي ..»

ثم انزلق بمقعده المتحرك إلى خلف مكتبه حيث جهاز الكمبيوتر يهدر بعمليات حسابية لا تنتهي .. لم أر قط جهاز كمبيوتر منهمكًا في الحسابات لكنها الحقيقة .. حسابات الأخ (عصام) من الطراز الذي يستغرق ساعة بجهاز الكمبيوتر، ولهذا يتركه يعمل وينصرف كأنه وضع كعكة في الفرن حتى تنضج !

قال لي باسمًا:

«هذا أفضل من الجيل الأول من الحاسبات الآلية . كان أول كمبيوتر يدعى (يونيفاك)، وكان التيار الكهربي يضعف في نصف مدينة سان فرانسسكو عندما يقوم بضرب 6 في 5 !!»

فكرت للحظة في هذا .. لابد أنه كان يعمل بالجازولين ..

قلت لـ (عصام):

«من الغريب أنني أمر بقضية تذكرني بقصة فيلمك (كيب فير) هذا.. لا توجد ألغاز هنا . القصة واضحة كالشمس ..»

ثم رحت أحكي له القصة على سبيل التسلية ..

راح يصغي ووجهه يضيء وابتسامته تتسع شيئًا فشيئًا ..

فلما انتهيت قلت له:

«ماذا أفعله مع (مختار) هذا ؟..

ليس بوسعي أن أرسل من يقتله على سبيل الاحتياط ..»

قال وهو يلوك بعض حبات الفول السوداني:

«لماذا لا تفعل العكس ؟.. تسجن هذا الوغد (مدحت) ؟»

«أسجن الضحية ؟..

أحيانًا يفعلون هذا في الخارج في قضايا المافيا .. قد يكون السجن أكثر الأماكن أمنًا و..»

قال في إصرار:

«بل تسجنه لأنه كاذب مجرم .. لقد سمعت القصة، ولم أسمع في حياتي كل هذا القدر من الكذب في قصة واحدة .. ومعنى كل هذا الكذب شيء واحد: هذا الرجل (مدحت) هو قاتل العجوز وقد ألصق التهمة ببريء .. وبعد خروج (مختار) من السجن مصممًا على الإيقاع بالقاتل الحقيقي، أصيب الفأر (مدحت) بالذعر، وراح يحكي لكم سيلاً من الأكاذيب ..

«هناك سبعة ضلوع حقيقية تتصل بعظمة القص، وثلاثة زائفة تتصل بالضلع العلوي، ثم هناك ضلعان سائبان غير مكتملين .. أي أن لدينا اثني عشر ضلعًا بينها أحد عشر تجويفًا .. بعبارة أخرى لا يوجد شيء اسمه التجويف الثاني عشر .. هذا يشبه الكلام عن سمفونية بيتهوفن العاشرة .. التقرير الطبي ملفق وقصة الطعنة ملفقة، دعك من أنه من غير المنطقي أن يطعنك قاتل في ضلوعك وتنسى الأمر ولا تذكره للشرطة ... فقط أراد أن يجسم خطورة (مختار) في عينيك .

«صديقك الدقيق أخفى الرسالة في كتاب (وصف مصر).. بين صفحتي 187 و188.. جميل .. لكن الصفحتين 187 و188 هما وجهان لورقة واحدة في أي كتاب ولا يمكن إخفاء شيء بينهما .. كان عليه أن يزعم أنه أخفى الورقة بين صفحتي 188 و189..

هذه من أقدم الألغاز البوليسية ..

«ثم صحا في الليل ليجد أن حريقًا شب في الصالة .. يحاول دفع باب الشقة فلا يستطيع لأن الرجل وضع شيئا خلفه ..

هل رأيت في حياتك باب شقة ينفتح للخارج ؟..

كل أبواب الشقق تنفتح للداخل ..

«أكاذيب لا نهاية لها..»

أصابتني الدهشة ورحت أحاول جاهدًا تذكر كيف ينفتح باب شقتي، فقال (عصام):

«هذا لا علاقة له بالأرقام .. هي مسائل تتعلق بالملاحظة لا اكثر .. يحكي الأديب الكبير (أنيس منصور) عن المصري الذي قص عليه كيف أساءت السفارة المصرية في نيوزيلندا معاملته وكيف ضربه سفيرنا هناك بالحذاء .. استشاط (أنيس منصور) غضبًا وكتب مقالاً ساخنًا عن الحادث ..ثم تذكر قبل ان يرسل المقال للمطبعة أنه ليست لنا سفارة في (نيوزيلندا) !»

«وهل حقًا ليست لنا سفارة هناك ؟»

«لا أدري !...فقط لم تكن هناك عندما مر (أنيس منصور) بتلك القصة ..»

أصدر الكمبيوتر صوتًا عجيبًا كأنه قرر أن يتحول إلى غسالة كهربية، ثم تجمدت الشاشة ..

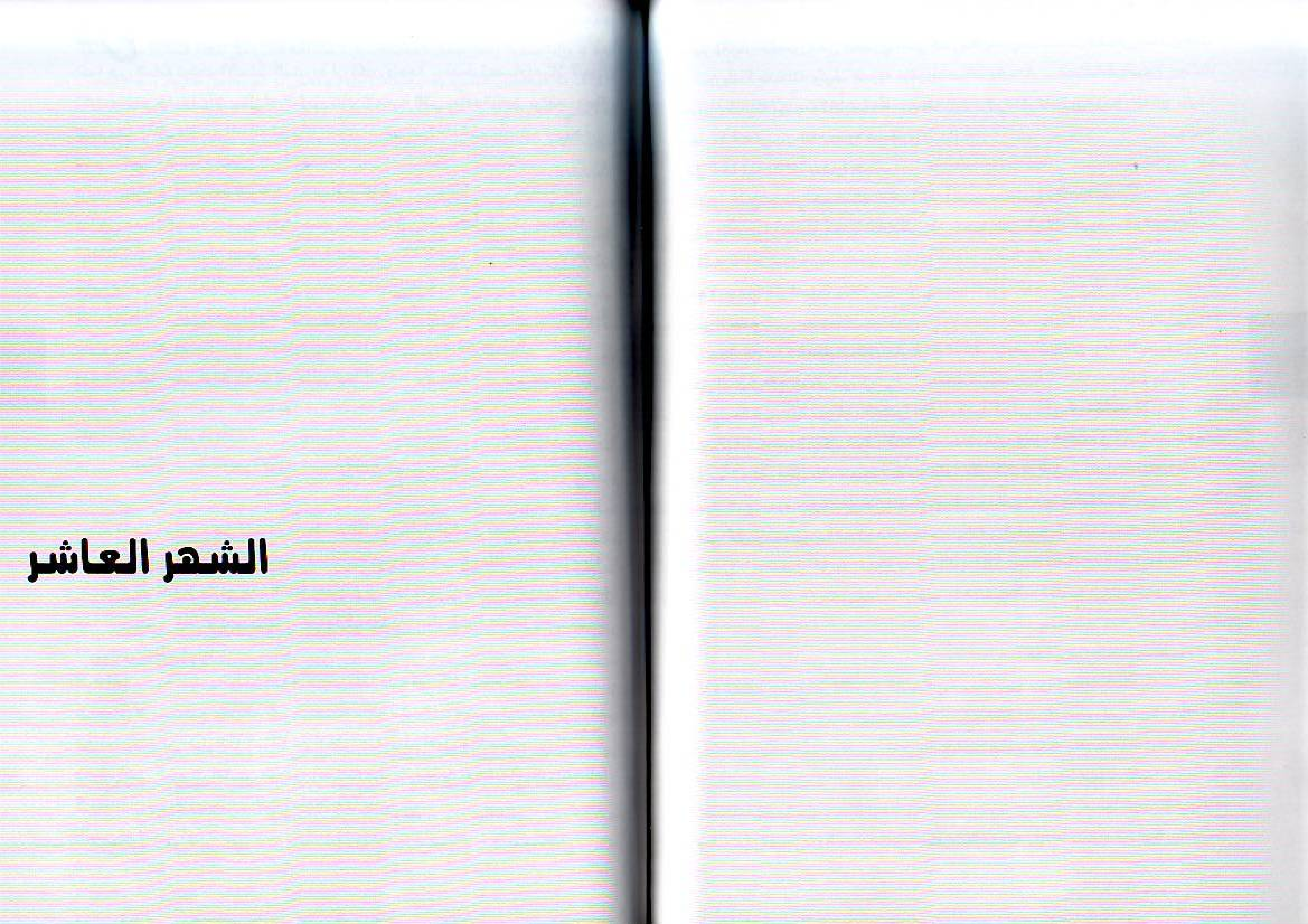
صاح (عصام) في أسى:

«انهار النظام !!...

لم يتحمل كل هذه العمليات الحسابية المعقدة !.. سوف أبدأ من جديد !..»

وأغلق الجهاز في عصبية وقال لي:

«أنا في حالة نفسية سيئة .. اتركني الآن .. فقط إعمل على أن تكشف لهذا الـ (مدحت) أنه كذاب في كل حرف قاله .. اضغط عليه وأنا متأكد من أنه يكذب لسبب واحد .. انه هو قاتل تلك العجوز عام 1979 وقد ألصق التهمة بقريب العجوز الوحيد الذي يعرفه .. الذعر لا يبرر كل هذا الحماس الذي يتصرف به .. فقط اتركني الآن واخبرني بما يستجد».



الشهر العاشر

فرغ عصام من التهام طعام الغداء ..

كما هي العادة توشك الأنماط البشرية أن تكون واحدة .. نمط (عصام) مثلاً لابد أن تكون وجبته خفيفة وألا يمثل له الطعام تلك الأهمية التي نعلقها نحن .. لقد راقبته اليوم وهو يأكل، وأقسم لك أنه لم يأكل سوى نصف ثمرة طماطم ونصف شريحة لحم .. كوب ماء .. ثم انتهى كل شيء ..

ورأيته يخرج على مقعده إلى الشرفة ليراقب البحر ...

كنا في فصل الشتاء .. اغرب وقت ممكن للذهاب إلى الاسكندرية، لكن إجازتينا توافقتا معًا، وبدا لي أن سحر اسكندرية الشتاء سوف ينسينا هذا البرد ... بالطبع كانت هذه الشقة المطلة على البحر رخيصة الثمن للغاية ..

كنت مخطئًا .. فقد تجمدنا بالفعل .. وكان علينا أن نتدثر بعشرات البطاطين طيلة الليل .. كنا قد اخترنا غرفة للنساء: زوجتي و(عفاف) .. وغرفة للأطفال .. أما أنا وهو فقد تقاسمنا غرفة واحدة تصطك فيها أسناننا بلا توقف ..

قالت لي زوجتي عندما انفردت بها في الشرفة ذات يوم:

«كانت فكرة حمقاء فعلاً...»

«آسف .. أعرف هذا .. لكنها إجازة (عصام) التي توافقت مع ....»

قالت في غيظ :

«وهذه نقطة أخرى .. هل لابد أن تربط حياتنا ونشاطنا البشري بصديقك هذا ؟.. هو رجل طيب ولا غبار عليه، لكني أمقت أن يكون معنا في كل مكان كأنه من بقية الأسرة .. ثم لماذا لا يتزوج هذه الفتاة (عفاف) ؟.. إنها تقوم له بكل ما تقوم به الزوجة عدا الإنجاب .. لماذا لا يصير الأمر رسميًا ؟.. وما دام صار قدرنا فلماذا يجب أن تكون هي كذلك قدرنا ؟»

كنت أتوقع هذه المواجهة وأخشاها منذ زمن، لذا قلت لها وأنا اضغط على أسناني:

«(عصام) لا يستطيع عمل أي شيء بنفسه .. إنه مشلول .. مشـ .. لـ ... و...ل .. كم من مرة يجب أن أقول هذا ؟... أنا لن أتخلى عنه .. لم أفعل هذا منذ سني المدرسة، فكيف أفعل اليوم ؟.. أما عن موضوع (عفاف) فالفتاة مهذبة ومحترمة، لكن (عصام) لا يملك أن يتزوج وينجب .. أنت تعرفين هذا جيدًا ...»

«أليس له أقارب ؟»

«هذه هي المشكلة .. له أقارب فرضتهم الظروف عليه .. القرابة لا تحل محل الحب أبدًا .. والواجب لا يحل محل العاطفة.. إن الصداقة تأتي من تلقاء نفسها بلا إرغام، أما أقاربه فيفعلون الشيء وهم متضررون، ويتمنون لو لم يكونوا أقاربه .. أنا أقدم له الشيء فخورًا وأشعر أنني قدمته لنفسي .. ألم تكن لك صديقة تشعرين بأنها اقرب لك من أختك ؟...حتى الأخوة الذين يتمتعون بعلاقات قوية، تجدينهم أقرب إلى الأصدقاء .. »

ضربت سور الشرفة بقبضتها وهتفت:

«لكني أتمنى لو تخلصت منه !.. لو تخلصت منهما !»

هنا شعرت بحركة خلف ظهري فاستدرت لأرى ذلك المقعد المتحرك يبتعد .. لقد سمع آخر كلامنا أو لعله سمعه كله !.. نظرت لها نظرة من طراز (منك لله يا شيخة) .. وهرعت لألحق به ..

وجدته أمام خزانة الثياب المفتوحة يضع ثيابه بعصبية في حقيبته المفتوحة على الفراش .. كانت هناك ثياب أعلى من قدرته على الوصول لها فصاح مناديًا (عفاف) ..

جاءت (عفاف) مذعورة فهتف بها والأوردة محتقنة على صدغيه وجذور عنقه:

«أعدي حقيبتي بسرعة يا (عفاف).. نحن راحلان ...»

سألته في غباء:

«كيف تنوي أن تفعل ذلك ؟.. إنني ...»

«سوف أتصرف .. ستجد (عفاف) سيارة أجرة تقلنا إلى القاهرة .. »

طلبت من (عفاف) أن تتركنا بعض الوقت، ثم أغلقت الباب وقلت له:

«أنت أنضج من أن تتصرف كالصبية .. كذا يفعل الأطفال الغاضبون .. لو كنت سمعت المحادثة جيدًا لفهمت .. رحيلك الآن يعني أنني لن أسامح (غادة) أبدًا .. ولن أسامح نفسي»

قال وهو يحدق في الجدار:

«لا علاقة لك بالأمر .. فقط صاحبة البيت تجدني عبئًا وضيفًا ثقيلاً..»

«وأنا صاحب البيت، وأقسم بالله العظيم أنك لن ترحل هكذا .. معنى رحيلك هو مشكلة تحل ببيتنا الصغير .. شرخ أبدي بيني و(غادة)»

فكر في الأمر حينًا .. كان يعرف أنني صادق .. صداقتنا تجاوزت مرحلة الشرح

بالكلمات ..

جلس أمام خزانة الثياب المفتوحة يرمقها .. وراح يحرك المقعد أمامًا وخلفًا شأن من يفكر في شأن مهم ..فكرت أن أنادي (غادة) لتعتذر له .. لكن (غادة) مثل النساء جميعًا لا ترتكب الأخطاء، وبالتالي لا تعتذر أبدًا .. تمتاز نساؤنا بأنهن معصومات لا يخطئن أبدًا .. يقال إن بعض النسوة في الغرب يخطئن أحيانًا لكني لا أصدق هذا ..

قلت له لأمنعه من معاودة الكرة:

«هناك مشكلة مهمة تحيرني .. صدقني .. كنت أنوي أن أطلب رأيك لكنك لم تعطني الفرصة .. أنت تتخلى عني في أسوأ وقت ممكن ..»

نظر لي متسائلاً فقلت بارتباك:

«الأمر يتعلق بقضية .. أنت تفهم هذه الأمور .. هناك دومًا مشاكل الأرقام التي أعجز عن حلها و..»

قال في نفاد صبر:

«مفهوم . مفهوم .. هات ما عندك»

قلت وأنا أراجع ورقة أخرجتها من جيبي:

«سأعفيك من التفاصيل .. هناك عصابة .. وهذه العصابة خطيرة جدًا.. أعني أنهم ليسوا من الحمقى الذين يسرقون الغسيل من على أسطح البيوت .. لدينا مرشد معهم، لكنهم بصراحة يشكون فيه ولا يتعاملون أمامه بوضوح .. لو تأكدوا من أنه مدسوس عليهم لتخلصوا منه فورًا ... لقد وجد هذه الورقة في وكرهم وهي تحدد التاريخ الذي قرروه لعملية سطو كبرى .. سوف نقبض عليهم متلبسين فقط لو فهمنا ما تحتويه هذه الورقة ... »

ثم قرأت بصوت عال ما كتب:

«الشهر العاشر ..ليلة عيد الميلاد .. العاشرة مساء»

«أي عيد ميلاد ؟»

قلت في صبر:

«عندما نتكلم عن عيد الميلاد بلا تعميم فنحن نتحدث عن ميلاد المسيح على الأرجح .. نحن في آخر نوفمبر لهذا من المحتمل أن السرقة قريبة .. لكن هنا يبرز سؤال عويص هو : ما هذا الشهر العاشر ؟... ثم لو كنا نتكلم عن ميلاد المسيح فهل نعتبره في ديسمبر أم يناير ؟ .. إن الأمر مختلط علي ؟..»

فكر حينًا ثم سألني:

«ما معنى كلمة ديسمبر ؟»

«لا أعرف»

«معناها (العاشر).. هذا هو الشهر العاشر ... »

«يا سلام ..؟.. ولماذا ليس الثاني عشر كما نعرف جميعًا ؟»

«كان الرومان – الذين وضعوا هذا التقويم – يعتبرون السنة تبدأ من مارس .. لهذا كان ديسمبر هو الشهر العاشر .. كانت السنة تبدأ بشهر مارس (على اسم إله الحرب) ثم إبريل (أى تفتح الأرضAperire) ثم مايو (على أسم الآلهة Maia) ثم يونيو (أى الاتحاد) ثم كوينتليوس (أى الخامس) ثم سكستس (السادس) ثم سبتمبر (أى السابع) ثم أكتوبر (الثامن) ثم نوفمبر (التاسع) ثم ديسمبر (العاشر)، ثم أضاف الملك (نوما بومبليوس) شهرى يناير (على اسم الإله Janus) وفبراير Februa (شهر التطهير) وبذلك أصبح طول السنة الرومانية 12 شهراً (365 يوماً). »

ثم قال وقد عادت عيناه تلمعان:

«هذه العصابة تتعامل بطريقة الشفرة، وهم يعرفون ما يفعلون فعلاً»

عدت أسأله:

«وهل ولد المسيح في يناير أم ديسمبر ؟... أقباط مصر يحتفلون في السابع من يناير بينما الغربيون يحتفلون في الخامس والعشرين من ديسمبر ..»

«كلاهما على حق ... العبرة هي يوم 29 كيهك بالتقويم القبطي، الذي وافق 25 ديسمبر، وذلك فى مجمع نيقية عام 325 م حيث يكون عيد ميلاد المسيح فى أطول ليلة وأقصر نهار (فلكياً) ، وقد كان هناك خلل معين في هذا التاريخ جعله يتأخر عشرة أيام عن (أطول ليلة وأقصر نهار)، مما اضطر البابا (جريجروريوس) إلى حذف عشرة أيام من التقويم الميلادي .. أي أن يوم 5 أكتوبر صار 15 أكتوبر .. ووضع البابا غريغوريوس قاعدة تضمن وقوع عيد الميلاد (25 ديسمبر) فى موقعه الفلكى (أطول ليلة و أقصر نهار) وذلك بحذف ثلاثة أيام كل 400 سنة، ولكن لم يعمل بهذا التعديل فى مصر إلا بعد دخول الإنجليز إليها فأصبح 11 أغسطس هو 24 أغسطس»

قلت في دهشة:

«هل تعني أن مصر شهدت يومًا تحول من 11 أغسطس إلى 24 أغسطس ؟»

«نعم .. فى أوائل القرن العشرين.. وفى تلك السنة أصبح 29 كيهك (عيد الميلاد) يوافق يوم 7 يناير (بدلا من 25 ديسمبر كما كان قبل دخول الإنجليز إلى مصر) .. لهذا صار السابع من يناير هو يوم ميلاد المسيح»

ثم في النهاية قال لي باسمًا:

«الخلاصة .. هؤلاء اللصوص سيسطون على هدفهم يوم 25 ديسمبر الساعة العاشرة مساء»

قلت في حماس وانا أدون أشياء في الورقة:

«أنت رائع .. إن الحياة من دونك مستحيلة ..»

نظر لي طويلاً ثم ابتسم وقال:

«لاحظ أنك عرفت الموعد ولم تعرف هدفهم .. عرفت (متى) ولم تعرف (أين) ؟.. ألا يبدو هذا غريبًا ؟»

قلت وأنا أعيد حاجياته إلى أرفف الخزانة:

«لدينا مصدرنا .. هو من سيحدد لنا (أين) و(كيف)... المهم أنك جعلتني أعرف (متى)...»

وخرجت من الغرفة فاتجهت إلى المطبخ لأقف جوار زوجتي التي كانت تغسل الأطباق ساهمة واجمة، وعلى استعداد تام للشجار إذا فتحت فمي ..

فتحت علبة القمامة وبدأت تمزيق الورقة التي في يدي، فسألتني:

«ما هذه ؟»

قلت وأنا ابتعد:

«قائمة الأشياء التي طلبت مني شراءها .. لقد اشتريت كل شيء فلم تعد لها قيمة»

الحقيقة أن الورقة لم تكن تحوي فعلاً إلا قائمة مشتريات .. أما كل القصة التي حكيتها لـ (عصام) فلم تكن إلا ملفقة .. قمت بتأليفها وحي الخاطر، وكان كل همي أن أشغل عقله الجبار عن الغضب ..

أن أضع طوفان انفعاله في قناة غير ترك البيت ..

يبدو أنني نجحت ..

كنت قد قرأت صباح ذلك اليوم كتابًا لأحد الرهبان المصريين يحكي فيه قصة التقويم.. وهذا ما جعل السؤال يطفو إلى ذهني، ولا داعي أن أقول لك إن كل ما قاله (عصام) كان دقيقًا كأن الكتاب مفتوح أمامه ..

بعد ثلاثة أيام كنت أمشي بـ (عصام) في منطقة مشمسة من المنتزه، عندما قال لي:

«على فكرة .. أدركت على الفور أن قصة العصابة التي تنوي سرقة شيء ما في الشهر العاشر ملفقة .. »

نظرت له في حيرة متظاهرًا بالبراءة، فقال في خبث:

«لو كانت المشكلة تؤرقك فعلاً، فلماذا لم تفتح الموضوع لمدة أسبوع كامل ؟.. لقد وجدت ذلك الكتاب على المنضدة .. الكتاب الذي يشرح ميلاد التقويم .. ثم وجدتك تطرح علي هذه المشكلة فعرفت على الفور أنها ملفقة ..»

«ولماذا أجبت عن أسئلة ملفقة ؟»

«ولماذا سألت أنت ؟...

كلانا مولع بصديقه لا يقدر على الاستغناء عنه .. فقط أرجو ألا تخبر زوجتك بأنني قلت هذا ..»

ثم ضم ياقته على صدره واصطكت أسنانه:

«بيني وبينك .. كانت فكرة المجيء إلى الاسكندرية في نوفمبر غبية جدًا ...غبية جدًا جدًا..»

كنا نرتجف، لكننا نضحك من أعماق قلبينا ...

ضيف غير
مرغوب فيه

ذكرياتي مع (عصام) صديقي العبقري توشك على أن تكون سلسلة من نجاحاته وسلسلة من دهشتي وذهولي ..

لكني برغم هذا أحتفظ ببعض الذكريات عن مرات فشل فيها، وهي ليست بالمرات القليلة .. إنه بشر بعد كل شيء .. لكن مرات فشله كانت مبررة دائمًا وفي كل مرة كان هناك سبب ما ..

مثلاً قصة (مولر) الألماني الذي جاء إلى مصر والذي كلفت بمراقبته كانت تحمل الفشل لـ (عصام)....

(مولر) لص متاحف محترف .. هذا ما يعرفه الجميع ويعرفه رجال الإنتربول، وقد أرسلوا لنا ملفًا مكتنزًا أتعبنا في قراءته .. لكنه عندما جاء إلى مصر لم يكن هناك شيء يمكن ان نتهمه به .. من الصعب أن تمنعه من دخول البلاد ..

هكذا كلفت بمراقبته، والحق انها كانت مهمة عسيرة لهذا رحت أدعو الله أن تأتي اللحظة المناسبة التي يترك فيها البلاد لينتهي هذا الكابوس .

في هذا الوقت استطعت أن أعرف عنه ما هو أكثر ..

إنه شخصية فريدة خرجت فعلاً من عوالم قصص (جيمس بوند).. هؤلاء الأشرار الذين يفعمون تلك القصص بوسامتهم وهدوء أعصابهم ..

في الأربعين هو .. ثري جدًا .. يقيم في واحد من أفخم فنادق القاهرة وأغلاها سعرًا .. معه حسناء سينمائية يقول إنها (صديقته).. وهو يصرف مبالغ فادحة في الفندق وفي الملاهي الليلية التي يرتادها .. أنيق جدًا ... بارد الأعصاب جدًا ..

لكننا راقبناه كأنه ميكروب تحت المجهر ... كان من الصعب أن يتثاءب أو يتكلم من دون أن أقرأ هذا في تقرير على مكتبي خلال ساعة ..

التقارير تقول إنه زار متحف (محمد محمود خليل) عدة مرات .. لم يفعل أي شيء سوى الوقوف ساعات أمام اللوحات الثمينة التي رسمتها فرشاة (فان جوخ) و(ديجا) و(مانيه)... يبدو أنه منبهر جدًا .. لكنه لم يفعل أي شيء على الإطلاق .. لو حسبت انه سيخرج مطواة ويمزق لوحة ويلفها في جيبه فأنت مخطئ .... لكني أدركت أن هناك كتكوتًا ينقر البيضة في ذهنه .. إنه ينوي شيئًا ما .. هذا واضح ... وهذا الشيء يتعلق بمتحف (محمد محمود خليل) بما فيه من تحف لا تقدر بمال ... على قدر علمي لا يمكنه أن يفعل أي شيء ... لو فعل لأعلنت انبهاري بهذا ...

على إنني قابلته في إحدى الحفلات في فندق في وسط القاهرة ..

برغم أنني أعرف كل شيء عنه فقد شعرت بفضول غريب وأنا أراه عن كثب .. كان يتكلم الألمانية مع بعض الألمان المحيطين به ويقرعون الكئوس، فتذكرت أنه كان يجب أن أجيد الألمانية لأكون هنا .. يقف بسترة بيضاء و(بابيون) كأنه العميل (007) فعلاً والحقيقة أن ملامحه قريبة من (روجر مور) إلى حد ما ..

رأيت أحد الأجانب يقترب منه فيدس هو في يده قصاصة ورق، تأملها الرجل بعناية ثم دسها في جيبه .. ورأيت بعض القلق .. القليل منه جدًا على تقاطيع وجه (مولر)، ثم استعاد حيويته وراح يمزح مع الشقراء الواقفة جواره ...

كنت قد رتبت كل شيء .. صديقي (فهمي) تأبط ذراعي واتجه إلى الرجل ليقول له بضع كلمات بالألمانية .. هي كما اتفقنا:

«هر (إيرليش).. هذا هو صديقي (محمود)... رجل الأعمال المصري .. إن لديه مجموعة لوحات نادرة يرغب في بيعها .. هو لا يفهم الألمانية بالمناسبة»

نظر لي (مولر) باهتمام وضاقت عيناه ثم قال بالإنجليزية:

«حقًا ؟»

قلت له بالإنجليزية:

«قمت بجمع هذه اللوحات ثم وجدت أنني أفضل المال أكثر من الفن ..»

وضحكت فابتسم مشجعًا .. وعاد يسألني:

«هل هي لوحات معاصرة أم كلاسية ؟»

«شيء من هذا وذاك .. لا أفهم في الفن .. فقط قيل لي إنه استثمار ممتاز»

نظر لي في إمعان .. كنت ألعب دور رجل الأعمال الثري الجاهل ببراعة .. أعتقد أنه ابتلع الطعم بسهولة .. سوف يوطد علاقته بي ..

قلت له:

«سمعت انك مهتم بالفنون ..»

هز رأسه أن نعم .. ثم استدار إلى الشقراء الواقفة جواره وقال وهو يشير لي:

«أقدم لك ضيفنا المصري .. إنه يملك مجموعة ممتازة من اللوحات ... لكني بصراحة لم أر من يعرض لوحاته في الحفلات بهذه البساطة .. لو كان هذا حقيقيًا فالحياة رائعة ..»

قلت على الفور:

«لكني بالفعل لا أعرف مشتريًا سواك ..»

قال باسمًا وهو يرفع كأسه في وجهي:

«بالتأكيد لديكم في الوزارة من يفعل ... !»

-«أية وزارة ؟»

ابتسم ابتسامة ذات معنى وقال:

«وزارة رجال الأعمال ..!.. لو كانت عندكم واحدة !»

ثم استدار ليواصل الكلام مع ضيوفه وأعطاني ظهره ..

شعرت بأن وجهي يشتعل خجلاً.. لم أقل له إنني سأنسحب، لكني استدرت مبتعدًا .. طبعًا كان يتحدث عن وزارة الداخلية لأن الحيلة لم تنطل عليه قط ... هو يعرف أنه مراقب وأن هناك رجال شرطة في كل مكان، لكني لم أتصور أن أنكشف بهذه البساطة ..

اتجهت إلى الحمام وأغلقت الباب علي، ثم قلت لـ (فهمي) عبر جهاز الهاتف المحمول:

«هل رأيت ذلك الرجل الذي أخذ قصاصة الورق من مولر ؟.. أريد هذه القصاصة !...

لا يهمني ما ستفعله يا (فهمي).. أرسل نشالاً خلفه .. أقبض عليه وفتشه .. افتعل له حادثًا .. المهم أن أجد هذه القصاصة معي خلال ساعة !»

كنت غاضبًا بالفعل ولا أشك في أنك تفهمني ..

هكذا وجدت القصاصة معي بعد بضع ساعات من هذا ..

ولم تكن مفيدة جدًا ....

••••••

جلس (عصام فتحي) صديقي العبقري وراء شاشة الكمبيوتر يتأمل تلك القصاصة الصغيرة .. قال لي ضاحكًا كاشفًا عن أسنانه الكبيرة:

«شفرة أخرى ؟... يبدو لي أنك تعمل في إدارة شفرات ..»

قلت له في غيظ:

«المسألة شخصية هذه المرة .. فالرجل جعلني أبدو أحمق ... أريد فهم ما تحتويه هذه الورقة ... لا يبدو أنهم سيجدون لها حلاً عندنا ..»

نظر إلى الورقة في تفكير ثم قال:

«تبدو صعبة فعلاً... من الممكن أن يكون المفتاح أي شيء ...»

ثم راح يقرأ بصوت عال:

« cxffd ffagf dfgag ffacg caafa gcdag cacg f fgf df dfafa gcaga axgacg»

ثم حك رأسه وقال:

«مجموعات من خمسة أحرف .. هناك تكرار واضح لحروف a d f G c X ..

لا يبدو أنه يستعمل حروفًا أخرى ..»

راح يكتب برنامجًا صغيرًا بلغة Basic على الكمبيوتر ..

وقال لي وهو يكتب السطور:

«لغة Basic سهلة ومتاحة للجميع ..

لهذا أطلق عليها مخترعوها (لغة المبتدئين الرمزية الصالحة لكل الأغراض

(Beginner's all purpose symbolic instruction Code)

الحروف الأولى تشكل لفظة BASIC »

وفجأة توقف عن الكتابة وهتف:

«تذكرت !..

هناك شفرة مماثلة كان الألمان يستعملونها في الحرب العالمية الأولى ..

اسمها شفرة (زيمرمان)... التي تطورت على يد (فريتز نبيل) لتصير شفرة ADFGX ..

تأمل هذا الجدول»

ورسم على رقعة من الورق جدولاً كالذي تراه أمامك:

	A	D	F	G	C
A	l	r	m	e	i
D	k	f	v	w	t
F	c	s	a	u	z
G	h	x	g	j	n
X	b	p	o	q	d

قال لي مفسرًا:

«الجدول لا يستعمل سوى ستة أحرف في المحور الرأسي والأفقي ...

لو نظرت إلى حرف A في الجدول لوجدته يقابل F على المحور الأفقي و F على

المحور الرأسي .. لهذا فإن الشفرة ترمز لحرف A بالحرفين FF... مثلاً B تقابل حرفي A و X .. لهذا نرمز للحرف B بـ AX .. وهكذا ..

«بعد هذا أدخلوا تطويرًا يقضي بكتابة الحروف في مجموعات من خمسة حروف لتزداد العملية تعقيدًا .. فقط الجاسوس يعرف متى تنتهي الكلمة ومتى تبدأ ..»

قلت له:

-«يبدو الأمر سهلاً..»

-«هل تحسب ذلك ؟.. لقد فشلت المخابرات البريطانية والفرنسية في فك هذه الشفرة .. لم يفهموا الأمر إلا بمراقبة القوات الألمانية والاتصالات والتموين .. الخ .. إن تاريخ الحرب العالمية الأولى يحوي نماذج عديدة للشفرات .. ربما أكثر من الحرب العالمية الثانية .. من الشفرات العجيبة التي استعملها الأمريكان لخداع اليابانيين استعمال لغة هنود (النافاهو) الذين كانوا يطلقون عليهم (المتكلمون بالريح).. وقد عجز اليابانيون تمامًا عن فهم هذه الشفرة ..»

ثم إنه راح يلقم الكمبيوتر بطريقة قراءة الشفرة .. وضغط على بعض المفاتيح فظهرت عبارة تقول:

- «Dasmu seumn ichth inaus schie ben»

نظر لي في حيرة .. ثم غمغم:

«ما معنى هذا ؟»

هززت كتفي وقلت:

«كنت آمل أن تخبرني أنت ..»

راح يتأمل الشاشة .. ثم قال وهو يحك رأسه:

«فعلاً .. لا أفهم .. يبدو أنها ليست الشفرة التي كنت أحسبها ..»

هكذا شاعرًا بخيبة الأمل أعلنت أنني سأعود لداري .. فلم يعد من شيء أستطيع عمله الليلة ..

أحيانًا يفشل (عصام)، لكن مشكلة فشله هي أنه يتركك عاجزًا تمامًا ..

••••••

على أنني تلقيت مكالمة هاتفية منه في العاشرة صباحًا .. كان يضحك حتى أنه كان يتكلم بكثير من العسر:

«أنت لم تخبرني أن لصك هذا ألماني ؟»

قلت في حيرة:

«نعم .. لم أقل هذا ..»

-«كان عليك أن تخبرني .. لهذا استعمل هذه الشفرة الألمانية .. ولهذا كانت العبارة باللغة الألمانية .. !..»

لقد كانت الرسالة تقول: «Das Museum nicht hinausschieben ...»

ومعناها ؟

«لقد سألت صديقًا لي يعرف الألمانية .. كان هذا صعبًا بسبب تقسيم الحروف إلى مجموعات خماسية لكنه استطاع فهم العبارة .. إنها تقول (المتحف ليس آمنًا)...

هذا ما أبلغه لصك لمعاونه في هذه القصاصة .. لم يرد أن يتكلم خشية ان تكونوا تسجلون كل شيء .. أعتقد أنكم لو بحثتم لوجدتم الكثير من التعليمات المكتوبة بالشفرة ذاتها .. سوف تقبضون على الرجل أو على الأقل تمنعونه من ارتكاب جريمة ما ..»

شكرته بحرارة ..ثم وضعت السماعة وأخذت شهيقًا عميقًا ... نحن نقترب أيها الهر (مولر).. نقترب جدًا ......

بعد دقيقة طلبت رقمًا آخر ...

خدمة لمدام إيفون

يعيش (عصام) كما تعرفون جميعًا وحيدًا في تلك الشقة بحي (المنيل) بالقاهرة .. شقة ليست فاخرة جدًا ولا متواضعة ..

إنها وسط في كل شيء لكنها – كما لك أن تتوقع – آية في النظام والنظافة ..

لا بد من النظام المحكم مع شخص قعيد وإلا لاقى الأمرين في العثور على ما يريد .. لا يؤنس وحدته إنسان إلا (عفاف) التي هي خليط من المدبرة والطباخة والممرضة والصديق العزيز، لكن الليل يدنو فتجمع حاجياتها وتتأكد أنه لا يريد شيئًا وأن كل شيء موجود قريب من متناوله ثم ترحل ..

هكذا يقضي ساعات الوحدة الثقيلة التالية في القراءة ومشاهدة التلفزيون والاتصال بأصدقائه، أو يجلس في مكتبه أمام شاشة الكمبيوتر يراجع بعض المعادلات والأرقام ..

ينام في الثانية بعد منتصف الليل، ويصحو في السابعة – لا تسألني كيف – مع مجيء (عفاف) لتعد له الإفطار ويبدأ يوم جديد ...

عندما يكون مرتبطًا بالكلية يصل (عباس) السائق في التاسعة ليحركه على مقعده إلى المصعد، فالسيارة فالكلية، ويلازمه طيلة اليوم حتى يعود به إلى داره ...

أما عندما لا يكون مرتبطًا بعمل فإنه يخرج بالمقعد إلى الشرفة ويراقب سير الحياة الصاخب متأملاً...

يعيش (عصام) حياة خالية من البهجة، لكنه بذكائه الخارق استطاع أن يحول الأرقام إلى نوع راق من التسلية ..

هو ليس وحده أبدًا ..

إنه هنالك مع (فيثاغورس) و(نيوتن) و(الخوارزمي) و(جاوس) في جنة الأرقام حيث تتدلى أرقام السبعة والتسعة من الأشجار الوارفة ..

كل ما يمت للأرقام بصلة قد جال بعقله يومًا ما، وقد خلق لنفسه أعقد المعضلات كي يتمكن من حلها ..

لقد تصورت أنه لا يفقه شيئًا في الطب، لكني تبينت أنه يعرف جيدًا ذلك الجزء من الطب المرتبط بالأرقام، وكانت لهذا قصة غريبة ..

••••••

جاءته (عفاف) في العاشرة صباح ذلك اليوم لتخبره أن هناك الكثير من الضوضاء في الشقة التي تقع أسفل شقته ..

«يبدو أن مدام (إيفون) قد توفيت ..»

وترقرق الدمع في عينيها .. هي لا تعرف الكثير عن مدام (إيفون)، لكنها تشعر بان كل إنسان حي قريب لها ..

(عصام) كان يعرف مدام (إيفون) الأرملة التي تسكن تحت شقته ..

أرملة هي ..

وحيدة بعد ما رحل الأبناء إلى الخارج ..

مسنة إلى درجة لا تصدق .. لها ضحكة لطيفة وعينان ماكرتان كعيني الأطفال، فيما عدا هذا هي سقيمة على الدوام، وفي العام الأخير صارت قعيدة الفراش لأنها أصيبت بالفالج ..

لا احد يبقيها حية إلا امرأة في الخمسين تدعى (عايدة) هي كذلك مزيج من مربية وممرضة ..

كان يهتم بشدة بهؤلاء العاجزين الذي يعنى بهم شخص ما، خاصة وأنه يرى نفسه في تلك الأرملة وإن لم يعترف لي بهذا، لهذا أدماه موتها بشدة، برغم أن كل إنسان يعرف انهم سيجدونها ميتة ذات يوم ...

هل الإنسان يعيش إلى الأبد ؟..

إن لم تمت هذه العجوز المريضة فمن يموت إذن ؟

لكنه أصر على أن تقوده (عفاف) إلى المصعد وهبط الطابق الذي يفصله عن شقة العجوز ..

هناك كان الباب مفتوحًا ..

يقف اثنان من رجال الإسعاف وطبيب شاب مرتبك والبواب وجار أو جاران ..

كان التجهم على الوجوه ..

لا وقت للأسئلة، وعلى كل حال بدا أن كل إنسان في الشقة يريد انتهاء الأمر سريعًا حتى لا يقع على عاتقه وحده..

لا أقارب ..

معنى هذا أن على الجيران القيام بكل شيء .

(عايدة) المرضة البدينة تقف محمرة الأنف ممسكة بمنديل ورقي .. وهي تنهنه بلا انقطاع، فاحتضنتها (عفاف) مهدئة ..

قالت (عايدة) بين الدموع:

«لقد قضيت معها الليل وكانت في خير حال .. في السادسة صباحًا قالت إنها تشعر بإرهاق ..

جلبت لها الدواء والإفطار ..

ثم دخلت المطبخ، فلما عدت وجدتها قد ماتت .. »

نظر (عصام) لساعته ثم قال في شيء من جفاف:

«أي أنها ماتت حوالي السابعة ..

ألم تفعلي شيئًا حتى العاشرة ؟»

«لقد كنت في حال غير طبيعية ..

لم أدر ما أفعل ..رحمها الله »

ثم انفجرت في البكاء ..

همست (عفاف) في أذنه أن المرأة مرهقة خائفة، وعليه ألا يوجه أسئلة ..

إنها تعيش مع العجوز بشكل مستمر وما حدث قد أفزعها بحق ..

قالت (عايدة):

«لم أتركها لحظة ..

لا شك أنها راضية عني ..

لقد فعلت كل ما يجب نحوها ..»

لم يحب (عصام) نغمة الدفاع عن النفس المستمرة هذه ..

لم يتهمك أحد بشيء .. هذه النغمة التي لا يكف المهملون عن ترديدها عندما يدركون أنهم مهملون ..

دخل الطبيب الشاب إلى غرفة المتوفاة وتفحص الجثة بسرعة ..

من خلفه دنا (عصام) بمقعده المتحرك ليقف على باب الغرفة ..

فوق الفراش هناك صورة عملاقة للعذراء ووليدها ..

هناك عدة أيقونات ..

الفراش مرفوع عند الرأس ليأخذ شكل المقعد ..

هناك مقعد متحرك من الطراز الذي يصلح لتثبيت مبولة ..

فوضى عامة وأغطية ملقاة في كل مكان .. رزم من الخطابات من كندا غالبًا من أبنائها ..

في هذا الوقت كان الطبيب يتفحص الجثة .. يثني العنق .. يفرده ..

برغم ان هذا غير لائق فإن (عصام) مد رأسه من وراء ظهر الطبيب ليلقي نظرة فضولية على وجه المتوفاة العجوز ..

مد الطبيب يده وأزاح الرداء عن بطنها، ليكشف عن جلد يشبه الرخام الأخضر فوق إربها الأيمن، فأشاح عصام بوجهه حياء وتراجع ..

كانت الإجابة جاهزة على كل حال .. هناك ألف علبة دواء على الكومود وهناك مظروف سمين مفعم بوصفات الدواء السابقة .. تقارير أشعة .. تخطيط قلب .. لو قلت إن هذا الموت مفاجئ لكنت مبالغًا ..

قال الطبيب للمسعفين:

«يمكنكما أن تنقلاها .. لا توجد مشاكل ..

إنها مريضة جدًا وكان لابد لهذا أن يحدث ..»

ثم أسدل الملاءة على وجه العجوز اللطيفة التي لن تضحك ثانية ...

خرج (عصام) على مقعده المتحرك من الغرفة، وقاده إلى حيث وقف البواب فسأله:

«هل كنت موجودًا صباح اليوم ؟»

نظر له البواب في شك ثم قال:

«لا .. أنت تعرف يا دكتور إنني آخذ الأولاد للمدرسة .. لا أكون هنا إلا في التاسعة ..»

هنا دار (عصام) بمقعده ليواجه الطبيب والمسعفين .. وينظر إلى (عايدة) في حدة ..

ثم قال ضاغطًا على كلماته:

«أما أنت فإنني أتهمك بالإهمال الجسيم، وسف أحرر محضرًا لك في النيابة ..!! »

نظر الجميع له في دهشة، فقال:

«أعتقد أن السيدة (عايدة) لم تكن هنا منذ ثلاثة أيام على الأقل .. تركت هذه العجوز البائسة وحدها .. من يدري ؟.. ربما ماتت جوعًا أو ظمأ .. واليوم فقط جاءت (عايدة) هانم من الخارج .. لم يرها البواب لأنه لم يكن موجودًا .. فقط فتحت الشقة لتجد أن مريضتها ميتة .. ميتة منذ أيام ..

هكذا أخرجت منديلها وملأت الدنيا صراخًا وبكاء وراحت تحكي كيف أنها باسلة ظلت جوار الفقيدة حتى اللحظة الأخيرة !

قال الطبيب في ضيق:

«عم تتكلم ؟.. هذه السيدة توفيت اليوم ..»

«هذا ما تقوله الممرضة وأنت صدقته .. صدقته لأن المرء لا يتصور ان يموت المريض بسبب آخر غير المرض ... كأنه من غير الوارد أن يموت مريض القلب برصاصة أو يموت مريض الكبد بالكهرباء .. صدقته لأنك ألقيت نظرة عاجلة روتينية على المتوفاة، وكل ما يهمك أن تملأ الأوراق وألا تقع عليك مسئولية قانونية، بينما أنا الذي لا يعرف شيئًا في الطب أمكنني أن أحدد ساعة الوفاة ..»

ثم أخذ شهيقًا عميقًا وهتف:

«الوفاة حدثت في وقت ما بين 24 ساعة و48 ساعة .. !!»

قال الطبيب في غيظ:

«هل الأستاذ طبيب شرعي ؟.. ما كل هذه الدقة ؟»

قال (عصام) وقد أرهقه كل هذا الجهد:

«لا .. لكني أعشق الأرقام واستخدمها بكفاءة ..

لقد قرأت الكثير .. هناك ما يدعى بالتصلب الرمي .. تصلب الوجه والعنق يبدأ بعد ساعتين ..

أنت ثنيت عنق المتوفاة فكان رخوًا لينًا ..

معنى هذا أن 24 ساعة مرت على الوفاة حتى يتلاشى هذا التصلب الرمي وترتخي الأنسجة .. اخضرار الجانب يبدأ من المنطقة الأربية اليمنى ومعناه أن 24 ساعة مرت على الوفاة .. ثم يبدأ الجلد يتحول إلى ما يشبه الرخام متى مررت 48 ساعة .. طبعًا لو كانت الوفاة منذ 3 أيام لبدأت تغيرات التعفن المعروفة ..»

قال الطبيب وقد بدأ يرتبك:

«صحيح .. لماذا لا يوجد تعفن ؟»

«لأن الوقت لم يحن بعد .. ثم إن هذه التغيرات تتأخر مع المسنين أو من نزفوا كثيرًا من الدم أو من تسمموا بالزرنيخ !»

«هل تريد القول إنها تسممت بالزرنيخ ؟»

«لا .. لكني أعرف شيئًا واحدًا .. هذه السيدة توفيت منذ يوم إلى يومين ولم يكن معها أحد ..»

ثم أشار إلى الممرضة وهتف:

..«هذه الدموع ليست دموع الحزن أو الثكل .. هي دموع الخوف .. دموع المهمل الذي يخشى ان يفتضح أمره !»

وقبل ان يتكلم أي واحد من الواقفين اندفع إلى الباب بمقعده المتحرك تتبعه (عفاف) .. ولم ينس على باب الشقة أن يستدير ويقول للطبيب:

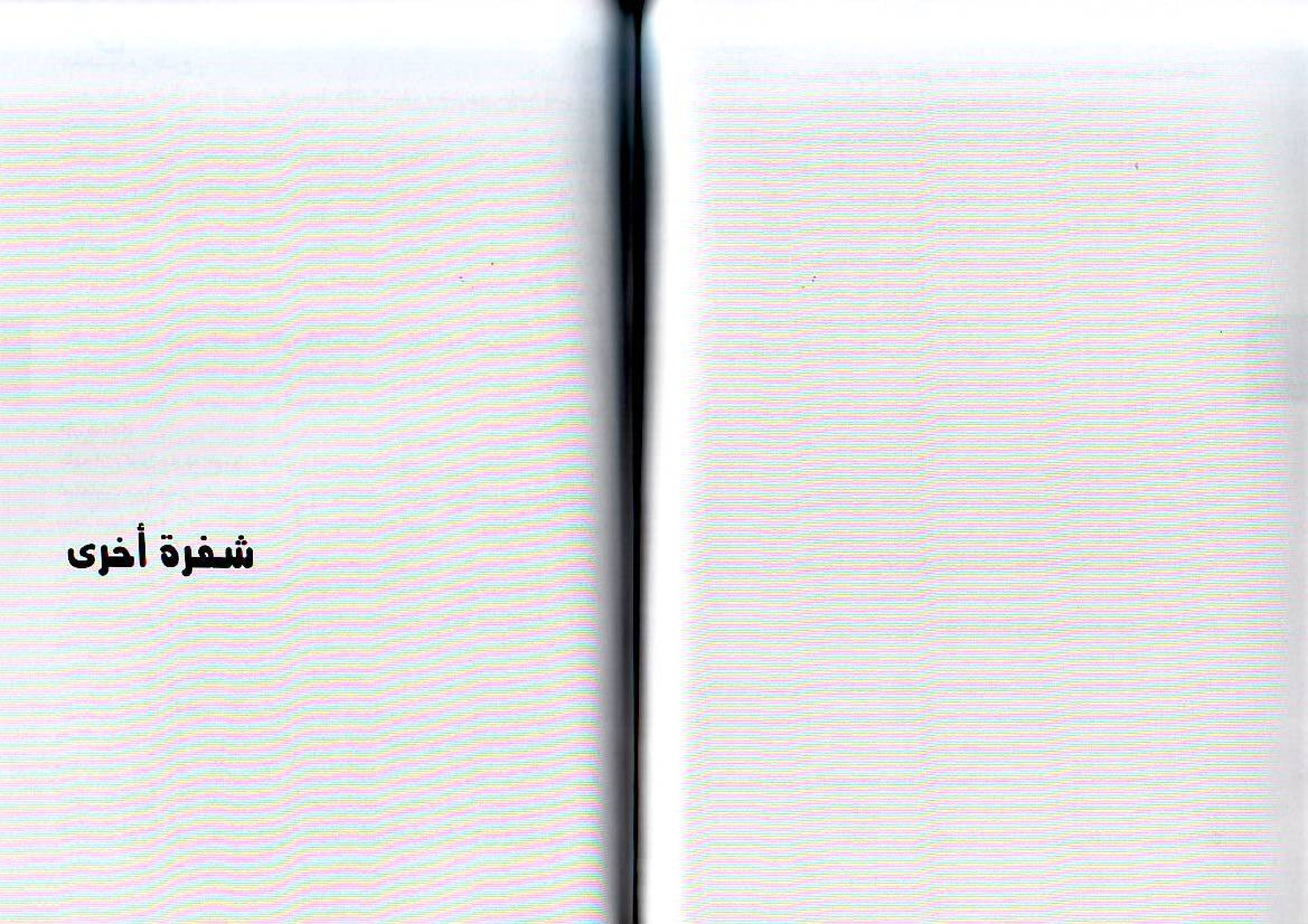
«اعمل على أن تخطر النيابة بالأمر ولا تستخرج تصريح دفن وإلا شكوتك ...!»

كان يغلي غيظًا .. يغلي غضبًا ..

والدموع التي احتشدت في عينيه كانت مزيجًا من حسرة وغيظ ... المسنون يجب ان يلاقوا أفضل عناية ممكنة وأن يعاملوا معاملة خاصة .. من أسوأ الجرائم طرًا أن تهملهم يومين كاملين وأن يموتوا وحدهم ..

والأسوأ أنه يخشى ان يتكرر هذا السيناريو معه يومًا ما ..يجب أن ينسى هذا وأن يحمد الله على وجود (عفاف) الباسلة الأمينة معه ....

لكنه على الأقل قد قدم خدمة أخيرة لمدام (إيفون)...



شفرة أخرى

فرغ صديقي (عصام) من محاضرته في الجامعة، وكنت أنا من بين الطلبة الجالسين في المدرج ..

يبدو منظري غريبًا جدًا كأني شيخ وسط هؤلاء الشباب بنضارتهم، خاصة أنني أكبر أكبرهم سنًا بخمسة عشر عامًا على الأقل .

على المنصة يتحرك (عصام) بمقعده المتحرك أمام لوح الكتابة، ولكنه لا يكتفي بذلك بل يستخدم جهاز الإسقاط الضوئي .. يدافع بحماس عن قضية لا أعرف عنها أي شيء .. لا أفهم حرفًا من الرياضيات المتقدمة التي يشرحها، لكني أعرف يقينًا أن هذا جزء ضئيل جدًا من كل ما يعرفه .. لقد جاء من نفس الخامة التي خلق منها (الخوارزمي) و(أينشتاين) و(فيرمي) و(علي مصطفى مشرفة) و(نيوتن).. هؤلاء قوم يفهمهم الناس بصعوبة جمة ..

انتهت المحاضرة فجمع الطلبة أوراقهم وخرجوا لا يصدقون أنهم نفدوا بجلودهم ..

أما أنا فقد اعتليت المنصة وهنأت (عصام):

«محاضرة ممتازة .. الدليل أنني لم أفهم حرفًا»

قال ضاحكًا:

«المهم أن يكونوا هم قد فهموا . فأنت حالة ميئوس منها»

ثم تعاونت مع العامل على إنزال المقعد، وخرجت معه من المدرج قاصدين البناية التي يوجد فيها مكتبه .. لقد اتفقنا على أن أوصله للبيت اليوم بدلاً من ذلك الشاب الذي يرافقه دومًا ..

لاحظت أن الطلبة يحبونه ويحترمونه بحق، وكنا نقابل عددًا منهم في ساحات الكلية فيحيونه بإعزاز بينما هو يمازحهم بطريقتهم .. ويستعمل ألفاظًا مثل (روشنة) .. (طحن).. الخ .. ألفاظًا من عالمهم .. من العسير بحق أن تظفر بحب واحترام الشباب لكنك تعرف أنك لن تفقدهما أبدًا على الأرجح..

ركبنا المصعد إلى الطابق الثالث حيث مكتبه ..

وهناك دفع المقعد إلى ما خلف المكتب، الأمر الذي قوى لدي تلك الفكرة السابقة: هذا رأس لا جسد له .. رأس عملاق يشع بالذكاء وجسد واهن ضعيف .. يذكرني كثيرًا بـ (هوكنج) أستاذ الفيزياء البريطاني العبقري .. طلب لي قدحًا من القهوة، ثم راح يتأمل مظاريف الرسائل المكومة هناك .. ثم نظر لي نظرة خبيثة من وراء

عويناته الضخمة وقال:

«هيه ؟»

«هييه ماذا ؟»

«السبب الذي أتى بك هنا وجعلك مهتمًا لهذه الدرجة .. أنا أعرف انك لا تفعل هذا كله لله أو حبًا في سواد عيني..»

طبعًا لن أستطيع أن أخدعه أبدًا..

ناولته ورقة مطوية هي نسخة فوتوغرافية لرسالة .. وطلبت منه أن يقرأها بصوت عال، فقال:

« أي ، هـ ، بي ، تز ، معه ض ، غ »

قرأها ثم رفع عينه وقال:

«هذه شفرة طبعًا ..»

قلت له في سخرية:

«أنت عبقري كالعادة .. طبعًا هي شفرة وأطلب أن تحلها لي ..»

قال في غيظ:

«يبدو أنك لا تستوعب ما أقوله لك .. ذات مرة حكيت لك عن الشفرات، وكيف إنها تحتاج إلى ما يعرف بـ (مذكرة المرة الواحدة) لحلها .. هناك شفرات تعتمد على إحلال رقم أو حرف مكان رقم أو حرف آخر .. مثلاً يمكن أن نحول كل (ألف) في كلامنا إلى (باء) ونتفق على هذا ... لكن هذه الطريقة يسهل حلها على الحاسب الآلي أو أي شخص لديه صبر لعد مرات تكرار الحروف .. »

ثم تذكر شيئًا فأضاف:

«ذات مرة جرب ملك الروم أن يختبر العبقري (الخليل بن احمد)، لذا أرسل له رسالة بحروف يونانية، وتحداه أن يقرأها عالمًا أنه لا يعرف حرفًا من تلك اللغة ... طلب الخليل مهلة للتفكير واعتكف في غرفته قليلاً ثم عاد بعد نصف ساعة حاملاً ورقة عليها كتابة بالعربية وناولها الضيف وقال: هل هذه رسالتك ؟. فيما بعد فسر الخليل الطريقة التي اتبعها فقال : ملك الروم يعرف أنني أجهل معاني الكلمات اليونانية .. هكذا فهمت أنهم استخدموا الحروف اليونانية ليكتبوا لي بها نصًا عربيًا .. بما أن هذه الرسالة كتبت بالعربية فلابد أنها بدئت بـ (بسم الله الرحمن الرحيم).. هكذا قارنت حروف أول سطر لأعرف كيف تكون الباء والسين والميم والألف

والـلام والـراء .. الخ في اليونانية .. ثم رحت اقرأ النص .. فإذا وجدت لفظة أعرف أكثر حروفها استنتجت الحروف الباقية ..عندما تجد لفظة (الرسـ ....ل) فإنك تستنتج أنها (الرسول) وهكذا تعرف شكل حرف الواو لدى اليونانيين، من ثم كونت الأبجدية اليونانية كلها ..

هذه هي الطريقة المعروفة باسم enteropic attack »

صحت في انبهار:

«عبقري »

«ومن نحن حتى نمتدح (الخليل بن أحمد) ؟..

على أن أحدًا لا يجسر اليوم على استعمال هذه الطريقة لأن حلها متاح للحاسبات الآلية .. هكذا نجد أننا أمام طريقة (مذكرة المرة الواحدة)...

هناك مفتاح لهذه الشفرة لكن لا يعرفه سوى أصحابها .. هات المفتاح أحل لك الشفرة »

لما رأى خيبة الأمل على وجهي قال:

«على كل حال لا بأس أن تحكي لي القصة ..

يقول أطباء القلب إنه من المستحيل أن يجد الطبيب تخطيط قلب ملقى في الشارع فيشخص لك ما به .. لابد أن تكون عنده خلفية عن المريض .. لعل الأمر ينطبق على حالتنا ..»

••••••

قلت له:

«نحن منذ زمن نراقب (علي الشناوي).. لو انك رأيته لأصابك الهلع، ولطلبت منا أن نقبض عليه بأية تهمة .. ما أن تراه حتى تدرك أنه مجرم .. لكنه حذر .. هذه نقطة، وشديد الذكاء جدًا، كما انه تلقى قسطًا من التعليم الجامعي .. نحن نعرف انه يؤجر قوته لمن يدفع أكثر .. يمكنك التخلص من أي شخص تريده لو دفعت المبلغ المتفق عليه ..

«في ليلة الحادث يأخذ الصراف (محمد بيومي) حقيبة مليئة بنقود شركة ما، ويسافر إلى الاسكندرية ليسلمها في المركز الرئيس لكنه لا يلحق بهم قبل موعد

الإغلاق .. هكذا يختار فندقًا جوار محطة الرمل ليمضي فيه ليلته .. في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل يجد موظف الاستقبال رجلاً مريبًا يحاول مغادرة الفندق، فيقبض عليه ويطلب الشرطة .. طبعًا يتضح أن هذا الرجل هو (علي الشناوي)..

«في ذات الوقت نجد الصراف (بيومي) في غرفته وقد ضربه احدهم حتى فقد الوعي .. هناك مبلغ ثمانمائة ألف جنيه اختفى من الغرفة ..

«في المستشفى لا يعرف الصراف أي شيء عمن هاجمه .. لقد هوجم أثناء نومه ..

«لم نجد النقود مع (الشناوي) لكن كل شيء يؤكد لنا أنه ألقى بالحقيبة من النافذة لشريك ينتظره .. (الشناوي) يؤكد أنه جاء للفندق ليبحث عن صديق له، ولا يعرف أي شيء عن الصراف .. ليس من حقنا اتهامه بشيء ما دمنا لم نجد معه المال او نضبطه متلبسًا .. طبعًا لا توجد بصمات كما في أية عملية اخرى قام بها (الشناوي)..

«ثمة نقطة أخرى مهمة .. لم يكن هناك من يعرف بالفندق ولا نية الصراف المبيت فيه إلا مساعده في العمل، لأنه اتصل به ليخبره بما انتواه .. مساعد الصراف يدعى (هشام) وهو شخصية مريبة ..

«كما ترى هناك شخصيات مريبة كثيرة في القصة .. ولا يوجد دليل واحد .. الدليل الوحيد هو تلك الورقة التي وجدناها في جيب الشناوي، وهي كما ترى .. بالمناسبة هذا ليس خط الشناوي ..

«لو استطعنا البرهنة على أن الشناوي هو الفاعل، لاستطعنا كذلك البرهنة على انه فعل هذا بتكليف من (هشام).. ولعله هو الذي تلقى الحقيبة من النافذة .. »

سألني (عصام):

«وماذا قال عن الألغاز الموجودة في تلك الورقة ؟»

«قال إن هذا ليس من شأننا .. كان يجرب قلمًا جديدًا .. هراء من هذا النوع ..»

عاد (عصام) يتأمل الورقة في اهتمام وقال:

«ما زال الأمر صعبًا .. و ......قلت لي كم كان المبلغ المسروق ؟»

«ثمانمائة ألف جنيه .. »

أخرج ورقة وقلمًا ورأيته يرسم جدولاً على الورق ويجري بعض العمليات الحسابية ..

ثم قال لي وعلى وجهه بسمة انتصار:

«متى وقع الاعتداء ؟»

«في الحادي عشر من مايو .. لابد أنه كان في منتصف الليل»

قال (عصام) ضاحكًا كطفل:

«كان المصاب – أعني الصراف – في الغرفة رقم 407 ؟»

نظرت له في ذهول .. لقد فعلها الوغد من جديد .. لكن كيف ؟

قال (عصام) وهو يعرض علي الجدول:

«لست ساحرًا .. لقد استعمل الرجل نوعًا من حساب الجمل ليفهم المعلومات التي أبلغها (هشام) له .. حساب الجمل أسلوب يهودي عرفه العرب واستعملوه في كلامهم بكثرة، لأن الأبجدية العربية تتطابق مع العبرية تقريبًا .. في هذا الحساب يتم وضع رقم يعادل كل حرف من الأبجدية، كما يلي:

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10
ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	
20	30	40	50	60	70	80	90	100	
ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ	
200	300	400	500	600	700	800	900	1000	

«وهناك دراسات عديدة في حساب الجمل في القرآن الكريم .. هناك أمثلة مذهلة حقًا .. لكن في حالتنا هذه لفت نظري رقم ثمانمائة ألف .. هذا هو المبلغ المسروق .. لو راجعت آخر حرفين في الورقة بعد كلمة (معه) لوجدت ض ، غ.. ثمانمائة .. ألف ..

«الآن تعال معي نتذكر نص المذكرة: (أي ، هـ ، بي ، تز ، معه ض ، غ)..
هي تحوي الأرقام: 11 (1 + 10) ، 5، 12 (2 + 10) ، 407 (400 +7)، معه 800، 1000..

«أي يوم 11 من شهر خمسة .. الموعد المناسب هو 12 مساء .. غرفة 407 .. معه 800 ألف ..

«إن (هشام) وغد حذر شديد الذكاء .. لهذا دون ما يذكره بالتفاصيل في مذكرة لا

يمكن فهم محتواها لو وقعت في يد الشرطة، وهي التي سلمها للشناوي .. وبما أن الشناوي يذكر حساب الجمل جيدًا كما هو واضح، فقد كان من السهل عليه أن يحول الحروف إلى أرقام في أية لحظة .. »

قلت في حيرة:

«هل تعني أن الشناوي علّم حساب الجمل لهشام ؟»

«هذا هو الاحتمال الأرجح ..لابد أن (هشام) كان ينتظر فرصة سانحة منذ زمن، وقد ابقى الشناوي مستعدًا .. فجأة جاءت الفرصة في مكالمة الصراف له من الاسكندرية .. يمكنه بسهولة أن يعرف رقم الغرفة أثناء المكالمة .. أنا أقمت في هذا الفندق من قبل .. هل غرفتك هي 211 ؟.. لا .. هي 407 .. هكذا يدون المعلومات مشفرة للشناوي ويرسلها له.. ربما اخبره باسم الفندق شفويًا .. وعلى كل حال يمكنكم بسهولة إثبات أن هذا الخط خط (هشام)... »

نظرت له في ذهول، ومددت يدي إلى سماعة الهاتف ..

سوف يسهل التأكد مما إذا كان على حق أم لا .. لكنني عرفت الجواب منذ اللحظة الأولى.

کتاب ثمین

رحت أتأمل رف الكتب في غرفة مكتب (عصام)... كانت ثقافته موسوعية كما لك أن تتوقع من شخص هو عقل قبل أي شيء آخر .. وقد أبديت له هذه الملحوظة فقال ضاحكًا:

«أنت تقع في الخطأ الذي تقع فيه الفتيات .. عندما يتقدم لها شاب يشذب شاربه جيدًا ويدخن لفافة التبغ المستوردة بأناقة، ويقود سيارته ببراعة، فهي تفترض أنه إنسان ممتاز يصلح زوجًا لها!»

قلت في غباء:

«لا أفهم ..»

«لا يعني وجود هذه الكتب عندي أنني مثقف .. ربما لم اقرأ عنوانًا واحدًا منها .. أنت تتعامل مع الناس كما يبدون لك لا كما هم فعلاً.. »

«لكني أعرف يقينًا انك قرأت هذا كله فأنا أعرفك»

حك رأسه في تواضع وقال:

«هذا موضوع آخر .. فعلاً قرأت أكثر هذه الكتب، وهذا يحملنا إلى السؤال التالي .. هل استوعبت ما قرأت أم أنني كنت كالحمار يحمل أسفارًا ؟»

كانت المناقشة معه ترهقني أحيانًا لذا آثرت الصمت، ورحت أتصفح العناوين .. كانت هناك مراجع رياضية كثيرة بالإنجليزية .. وكانت هناك كتب أدبية، على أنني وجدت مجلدًا فارغًا .. مجرد غلاف سميك لا يحوي أي شيء .. وقد كتب على كعبه اسم (إنريكو فيرمي)..

قلت له ضاحكًا:

«هل تخفي نقودك في غلاف مجلد فارغ كما يفعلون في السينما ؟»

قال وهو يمسك بالغلاف في يده:

«للأسف لا .. هذا الكتاب كتبه واحد من أعظم علماء الفيزياء في القرن العشرين .. (فيرمي) عالم الطبيعة النووية الذي فر إلى الولايات المتحدة ليكون مع (أينشتاين) و(بور) وآخرين في عصر طموح القنبلة الذرية .. على كل حال كانت فكرة القنبلة وليدة أفكار (زيلارد) وقد نفذها (أوبنهايمر)... لم يتسع الوقت لأقرأ هذا الكتاب قط .. اقترض أحد الأوغاد هذا الكتاب مني منذ عشرة أعوام ثم أعاده لي فارغًا وقال إن ابنه مزقه .. هو لا يعرف أين ذهبت محتوياته .. اعتذر كثيرًا جدًا، لكن فقد هذا

الكتاب يشعرني كأني فقدت يدي اليسرى..»

«إلى هذا الحد ؟»

«لقد فشلت في العثور عليه ثانية .. جريت البحث في الإنترنت لكن من الواضح أن هذا الكتاب قد انقرض .. »

ثم ابتسم وأعاد الكتاب إلى الرف وقال:

«دعنا من هذا .. هل ستتناول العشاء معي ؟... لا ؟... إن هذا مؤسف ..»

«أنا لم أقل لا ..»

«لمحت الرفض في عينيك وشعرت بحسرة !..»

كنت أنا شارد الذهن أفكر .. أنا بحاجة لتقديم شيء ما لهذا الرجل الشجاع .. إن عيد ميلاده قريب .. ماذا لو فوجئ بأن صديقه لم ينس .. وأنه بحث عن الكتاب الثمين ووجده ..؟..

قلت له في حذر:

«هل تسمح لي بأن آخذ الغلاف معي ؟..»

«لن تنجح .. لو كان للكتاب أثر لوجدته أنا ..»

«جربني .. فقد تسبق العرجاء ..»

هز رأسه باسمًا وناولني الكتاب الفارغ .. غير عالم أنه قدم لي طنًا من المتاعب في الأسبوع التالي ..

••••••

الحاج بيومي قادني إلى عم خليل وعم خليل قادني إلى يوسف .. يوسف أخبرني عن أبي طالب وهذا الأخير دلني على أسامة .. هذه جولة وسط أباطرة الكتب في القاهرة .. ملوك سور الأزبكية الذين يملكون مفاتيح الكتب، ويعرفون مكان أي كتاب في مصر ..

كان من الممكن أن تساعدني مهنة الضابط كثيرًا في هذا الصدد ، لكني فضلت ان احتفظ بأمرها سرًا لأن هؤلاء القوم حذرون متشككون بطبعهم .. ضابط يبحث عن كتاب أمر لا يعني سوى الكثير من المتاعب ..

أسامة كان شابًا في الثلاثين له شارب كث وعينان حذرتان يقظتان .. وكان يجلس

في المقهى حافي القدمين بينما يلمع عجوز أسمر نحيل حذاءه على بعد خطوات، وكان يشرب الشيشة ويجرع جرعات كبيرة من كوب شاي أسود ثقيل، وهو لا يفارقني بعينيه .. لسبب ما أشعر أننا نتكلم عن مخدرات لا عن كتاب لعالم فيزيائي ..

سألني:

«هل قرأت ذلك الكتاب ؟.. ما محتواه ؟»

«لم أقرأه ولم يقرأه صديقي .. لكنه كتاب باللغة الإنجليزية عن الطبيعة النووية .. »

ثم وضعت الغلاف الفارغ أمامه فنظر له متفحصًا، وقال وهو ينفث سحابة دخان كثيفة:

«سوف أجده .. إن لنا وسائلنا ما دام الزبون جادًا ويقبل الدفع .. لكن لا اضمن ألا يكلفك هذا غاليًا ..»

«المال ليس مشكلة .. لكن هل لي أن اعرف كيف تنوي أن تجده ؟»

«هذه مهنتي .. حتى لو اضطررت إلى الاتصال بأحد معارفي في الخارج ..»

ثم وضع مبسم الشيشة على المنضدة وصفق بيده طالبًا الحساب، فأقسمت أن أدفع أنا .. ناولني بطاقة صغيرة عليها رقم هاتفه المحمول وقال لي:

«بعد أسبوع إن شاء الله تسمع خيرًا»

••••••

بعد أسبوع كان أكثر ظرفًا ولطفًا .. على نفس المقهى أخرج كتابًا من كيس ورقي وقال:

«تفضل ..»

في لهفة نظرت للغلاف فرأيت اسم (إنريكو فيرمي) .. فررت الصفحات فوجدت كلامًا لا أفهمه عن مدارات الذرة والنيوترونات والبروتونات والالكترونات .. رسوم لمدارات .. الخ .. نفس الغلاف الذي رايته عند عصام ..

«وهذا هو غلافك الأصلي ..»

ووضع الغلافين أمامي لأرى التشابه الكامل بينهما .. ثم قال في لطف:

«خمسمائة !»

«خمسمائة صفحة ؟»

«بل خمسمائة جنيه !»

وراح يحكي لي مدى المصاعب التي عاناها والإكراميات التي دفعها .. لولا المبالغة لقال إنه سافر إلى ورشة (فيرمي) ليأخذ الكتاب منهم .. بالفعل بدأت أشعر أننا نتكلم عن صنف من المخدرات لا عن كتاب .. يحاول إقناعي أنه لن يكسب سوى جنيهين أو ثلاثة من هذا المبلغ كله ..

لكني وعدت .. لذا مددت يدي في حافظتي وأخرجت المبلغ المطلوب ..

أرجو أن يسعد (عصام) بهذا الكتاب .. هذا هو التعويض الوحيد لي عن كل هذا المال الذي ضاع هباء .. لو ان زوجتي عرفت لنصبت لي المشانق ..

وفي يوم عيد ميلاد عصام طلبت منه أن يغمض عينيه ثم وضعت الكتاب اللعين في حجره ..

فتح عينيه ونظر للكتاب في لهفة ..

«يا صديقي الطيب !.. أنت فعلتها !!»

سألته في حذر:

«هل المحتويات واحدة ؟»

«لا أدري .. تعرف أنني لم أقرأ الكتاب الذي ضاع ..»

وراح يتصفحه .. ثم قلب بطن الغلاف الأخير وتأمل شيئًا ما .. أخرج قلمًا صغيرًا وراح يجري حسابات معينة على الهامش ..

بعد دقيقة قال لي:

«لا أريد أن أضايقك .. لكن هذا الكتاب مزور ..!»

صحت في صوت كالبكاء:

«ماذا ؟..

الغلاف هو الغلاف والمحتوى عن الطبيعة النووية .. »

«نعم .. نعم .. هو كتاب عن الطبيعة النووية لكننا لا نعرف مؤلفه .. هناك من قام بتزوير الغلاف ليشبه الكتاب القديم، وهي عملية شاقة متقنة، خاصة ان اسم الكتاب لا يوجد على هامش الصفحات .. يبدو أنك أبديت لهفة واضحة أغرت البائع بأن يقوم بهذا التزوير الشاق ..»

قلت في حيرة وأنا أشعر بأنني دست سلكًا كهربيًا:

«لكنك تقول إنه متقن ..»

«متقن نعم ..

هذا ليس مرادفًا للفظة (أصيل).. كم دفعت ثمنًا له ؟»

قلت كاذبًا:

«عشرين جنيهًا !»

صفر بشفتيه غير مصدق لفداحة المبلغ .. وقال في غضب:

«يجب أن تعيده .. عشرون جنيهًا ؟.. إن النصب لن يتوقف عند حد !!»

قلت له وأنا أستجمع أنفاسي:

«سأعيد الكتاب لكن أريد معرفة كيف عرفت ..»

فتح الغلاف الأخير حيث باطن الكتاب .. هناك كانت العبارة الشهيرة:

ISBN 0 - 205 - 12669 - 7

قال لي:

«هل تعرف معنى ISBN ؟»

«يكتبونها في آخر الكتب .. أعتقد أنها رقم الإيداع أو شيء من هذا القبيل ..»

«بالفعل .. هي اختصار عبارة International Standard Book Number ..
أي رقم الكتاب القياسي الدولي .. لو قرأت الرقم من اليسار لوجدت الصفر .. معنى هذا أن لغة الكتاب هي الإنجليزية .. 205 رقم يدل على الناشر ..
12669 يحدد الكتاب نفسه ..

الرقم الأخير على اليمين هو المهم، لأنه يحدد مدى دقة هذه الأرقام المجاورة ..
لحساب هذا تضرب كل رقم من اليسار إلى اليمين حسب موضعه من عشرة إلى واحد..

أي تضرب الصفر في عشرة .. وتضرب الاثنين في تسعة .. وتضرب الصفر في ثمانية .. وهكذا حتى تبلغ اليمين ..ويتم جمع هذه الأرقام كالتالي :

$$0X10 + 2X9 + 0X8 + 5X7 + 1X6 + 2X5 + 6X4 + 6X3 + 9X2$$

يتم جمع هذه المصفوفة ..

سوف تجد أن المجموع هنا 129 ..

الآن يختار من يضع الترقيم أن يكون الرقم على اليمين عددًا صحيحًا من واحد إلى عشرة ..

هو أقل عدد يُضاف لمجموع المصفوفة لتقبل القسمة على 11 .. في مثالنا هذا تجد

أنك لو أضفت رقم 3 إلى 129 لصار المجموع 132 وهو رقم قابل للقسمة على 11 .. هو أقل رقم ممكن لتحقيق هذا الشرط .. بعبارة أخرى الرقم على اليمين يدلنا على أن الحسبة صحيحة »

ثم قرب الكتاب مني وقال:

«كما ترى الرقم هنا هو 0 - 205 - 12669 - 7 ...

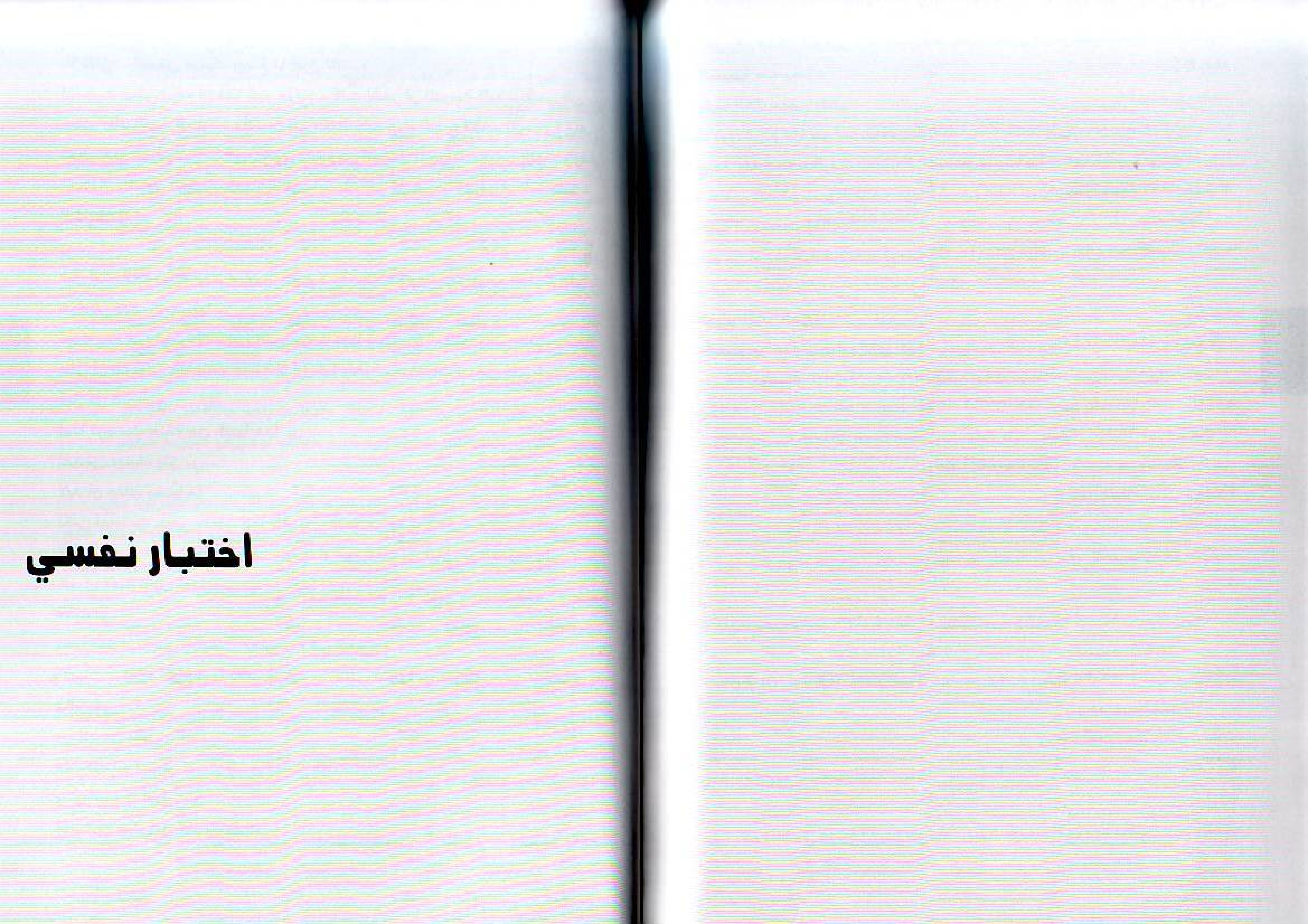
لا يوجد رقم 3 على اليمين .. رقم الكتاب القياسي خطأ .. هذا كتاب لا وجود له ببساطة .. لقد تم تلفيق الغلاف جيدًا لكن من لفقه لم يكن يعرف هذه القاعدة .»

ثم قلب الصفحات وقال:

«دعك من أني لو قرأت بتدقيق لوجدت ما يدل على مؤلف الكتاب الحقيقي .. ولكن إلى أين انت ذاهب ؟»

قلت وأنا أغادر الغرفة:

«سأبحث عن هذا النصاب الذي خدعني وسلبني الخمسم .... ! .. العشرين جنيهًا ... سوف يعرف أنه حاول أن يعبث بضابط شرطة .. سأريه أنني أعرف كيف أكون شرسًا !»



اختبار نفسي

قالت لي (شيرين) :

«لا تقلق .. أغمض عينيك واصغ لما أقول لك ..»

أغمضت عيني برغم أن هذا غير مريح .. كنت اشعر أن المدرسة كلها تراقبني في عصر ذلك اليوم الحار .. جالسين في الفناء نشم هواء الربيع القادم (الحراق) إياه .. أخاف هذا الهواء كثيرًا .. الهواء الذي تشبع من الحقول المحروثة وحبوب اللقاح وأزهار البرتقال وأنفاس العشاق، فصار كاللهب يتسلل إلى كل مراكز الهرمونات ليشعلها ..

أنت عاشق !..

ومتى ؟..

قبل امتحانات نهاية العام مباشرة حيث لا وقت للأحلام والشعر ورسم القلوب على هوامش كتاب الجغرافيا ..

كانت هذه هي الفترة القصيرة التي عرفت فيها (شيرين) الفاتنة، والتي ظلت مصرة على أن تداعبني مداعبات عقلية لا أول لها وآخر .. مداعبات تبرهن على غبائي قبل كل شيء..

لهذا توجست خيفة من طلبها هذا ..

أغمض عينيك وثق بي ..

لابد أن هناك مقلبًا ما ..

لكني أغمضت عيني وفعلت كما طلبت .. فقط من وقت لآخر أفتح نصف عين لأتأكد من أن الفصل كله لا يقف حولي، أو أنها ثبتت لي ذيلاً أو ألصقت على ظهري لافتة تقول: اضربوني ..

قالت لي:

«هذا اختبار نفسي بسيط .. يمارسونه في الخارج .. »

«فهمت .. ثلاثة أكواخ فيها ثلاث فتيات ... الأولى اسمها هالة والثانية من فرنسا و...»

قالت في دلال:

«يا لك من طفل .. !..

قلت لك إنه اختبار نفسي وليس اختبار ذكاء ...

والآن أصغ لما أقول ...»

أغمضت عيني بإحكام وانتظرت ...

قالت لي:

«أنت تمشي في الغابة .. تخيل هذا .. هل رأيت غابة من قبل ؟.. لا ... إذن أنت تمشي في عزبة أو في الريف . أي شيء... من الذي يمشي معك الآن ؟»

قلت على الفور:

«يا له من سؤال سخيف !! .. أنت طبعًا ..»

«ليكن .. هذا مفهوم .. هناك حيوان يعبر الغابة أمامك .. هل تراه ؟.. هل عرفت ما هو ؟»

«أعتقد إنه .. إنه فيل .. فيل أفريقي كبير .. ينظر لي ويرفع خرطومه محييًا ..»

«ماذا تفعل له ؟»

فتحت عيني ونظرت لوجهها المليح القسيم وقلت:

«أنا ؟؟ .. لا شيء طبعًا .. ماذا بوسع المرء أن يفعل مع فيل ؟ .. أتجاهله وأتظاهر بأنني لم أره ..»

عادت (شيرين) تتكلم:

«هم م م .. الآن أنت غادرت الغابة لتمشي وسط مساحة خالية من الأشجار .. هناك بيت .. بيت أحلامك الذي تصبو إليه طيلة حياتك .. هل هو كبير ام صغير ؟»

قلت في تواضع:

«صغير جدًا... أنا مولع بالقليل من كل شيء، وأؤمن بأغنية فريد الأطرش: عش العصفورة يقضينا .. لو كنت معك فمن يحتاج إلى بيت كبير ؟ البيت الصغير يتيح لي أن أكون بقربك طيلة الوقت»

ضحكت ضحكة من لا يريد المزيد من المزاح وواصلت الأسئلة:

«هل حول البيت سور ؟»

«لست متأكدًا ...»

«فكر جيدًا... فكر بعمق ..»

«لم أر بيتًا في غابة من قبل، لذا أعتقد أنه محاط بسور مكهرب .. لابد من إبعاد الوحوش كما تعلمين ..»

قالت لي بعد صمت:

«حسن .. انت دخلت غرفة الطعام ..

هناك منضدة .. هل لك أن تصف لي المشهد ؟»

فكرت قليلاً ثم قلت:

«لا يوجد شيء .. »

«متأكد ؟.. لا يوجد ناس يطعمون ؟.. لا طعام على المائدة ؟»

«لا شيء .. مجرد مائدة خشبية عتيقة فارغة ..»

«هممم .. ليكن .. أنت غادرت البيت .. هل ترى هذا الكوب الملقى وسط العشب ؟»

«لا يوجد كوب وسط العشب ..»

«بل يوجد .. أنظر جيدًا ..»

«لا يوجد .. من الذي يحلم ؟.. أنا أم أنت ؟.. ولكن .. ليكن .. هناك كوب فعلاً..»

«مم صنع ؟»

«إنه كوب ورقي طبعًا .. ما داموا تخلصوا منه بين العشب فلابد أنه ورقي .. للاستعمال مرة واحدة»

«وماذا تفعل به ؟»

«أسحقه بقدمي.. أحب صوت تهشم هذه الأكواب الورقية ..»

فكرت حينًا ثم قالت:

«جميل .. جميل .. والآن انت تتجه خارج حدود المنطقة .. هناك سطح مائي ما .. هل هو بقعة ماء أم بئر أم بركة أم نهر أم بحيرة أم محيط ؟»

فكرت في الصورة المتجسدة في خيالي وقلت:

«بركة ماء .. لا أراها إلا بهذا الشكل ..»

«كيف تنوي أن تعبرها ؟»

إنها تحاول الإيقاع بي كما هو واضح .. اختبار ذكاء .. هكذا قلت في حماس:

«لن أعبرها .. لو اضطررت للعبور لبحثت عن جذع شجرة استعمله كجسر .. هكذا لن أبتل أبدًا ..»

قالت لي:

«والآن افتح عينيك .. لقد انتهى الاختبار ..»

فتحت عيني شاعرًا بذلك الشعور الغريب المعتاد بأن درجة الإضاءة تغيرت أو أن شكل الأشياء لم يكن هكذا عندما أغمضت عيني .. سألتها على الفور:

«هيه ؟.. ما النتيجة ؟»

كانت تمسك بمفكرة صغيرة دونت فيها إجاباتي، وقالت وهي تجمع حاجياتها:

«ليس الأمر بهذه البساطة .. سوف أرجع لكتبي أولاً..»

وسرعان ما كانت تتواثب مبتعدة .. ووقفت وحدي أنظر لها حالمًا ...

••••••

كان (عصام فتحي) صديقي العبقري يقف هناك يراقب مباراة في كرة القدم بين الصفين الثاني والثالث .. لابد أنك لاحظت أننا في أيام الدراسة وكان (عصام) يمشي .. كانت له قدمان حيتان ..

أما عن وقوفه يشاهد المباراة فأمر عجيب .. بالتأكيد هو لا يراقب اللعب ولكنه يراقب ذاته وأفكاره الخاصة . ربما يدرس احتمالات أن تلمس الكرة ذات اللاعب مرتين، أو احتمال أن تخرج من الملعب .. المهم إنه يشاهد كل شيء في الملعب عدا المباراة ..

«تأخرت ..»

لوحت بالكيس الورقي في يدي وقلت:

«كنت أشتري بعض الحلوى من المقصف .. ثم قابلت شيرين فأجرت لي امتحانًا سريعًا .. اختبارًا نفسيًا عجيبًا ..»

ورحت أحكي له تفاصيل أسئلة (شيرين) وهو يبتسم.. ابتسامته تزداد اتساعًا مع الوقت .. حتى انفجر يقهقه .. سألته في غيظ عما يضحك ها هنا ..

قال لي:

«إن الكتب والمجلات تعج بالاختبارات من هذا النوع .. لكن هذا الاختبار شهير جدًا ومن الغريب أنك لم تسمع عنه من قبل .. والأجمل هو أنك اخترت كل الإجابات الخاطئة .. »

«ماذا تعني ؟»

قال في هدوء وصبر:

«أنت في غابة وتمشي مع شخص ما .. من المفترض أن هذا الـ (شخص ما) هو أهم شخص في حياتك .. أنت اخترت (شيرين).. جميل جدًا .. بداية موفقة . هناك حيوان يعبر الغابة .. حجم هذا الحيوان يدل على حجم مشاكلك .. أنت اخترت الفيل وبالتالي دللت لها على أنك تواجه مشاكل عويصة في حياتك ..أما طريقة تعاملك

مع الحيوان فتدل على طريقتك في مواجهة المشاكل .. طبعًا أنت عبقري ولم تفعل أي شيء على الإطلاق .. معنى هذا أنك إنسان سلبي جدًا ..»

«ليكن .. لا أتوقع أن تكون كل إجاباتي موفقة ..»

«المنزل في الغابة يدل على حجم طموحاتك .. كنت أنت متواضعًا قنوعًا واخترت أصغر منزل ممكن .. يمكننا أن نعرف أنك لا تملك أي طموح على الإطلاق .. السور حول المنزل يدل على شخصية منغلقة تمقت الآخرين .. ثم إنك دخلت قاعة الطعام لتواجه منضدة خالية ليس عليها طعام ولا يوجد ناس .. معنى هذا انك شخص غير سعيد على الإطلاق .. ثم خرجنا إلى الغابة لنجد الكوب الملقى وسط الأعشاب .. خامة الكوب تدل على متانة علاقتك مع الشخص الذي دخلت الغابة معه .. أنت اخترت كوبًا ورقيًا لأنك ذكي .. هذا يدل على متانة علاقتك بشيرين . والأدهى انك هشمت الكوب بقدمك .. ما تفعله مع الكوب يدل على موقفك من الشخص الذي دخلت الغابة معه . واضح أنك تحترمها وتحبها فعلاً..»

كنت اشعر بأذني ملتهبتين كالفحم .. وصحت في ضيق:

«وماذا عن البركة ؟»

«السطح المائي يدل على حجم حبك لذلك الشخص .. ألم تسمع فيروز تقول: شايف البحر شو كبير ؟.. كبر البحر باحبك ؟.. أنت قلت إنك تحب شيرين بحجم بركة صغيرة .. لكن الأمر لم ينته بعد .. لو أنك ابتللت أثناء عبور البركة لكان هذا دليلاً على شدة حبك، لكنك لم تبتل وفضلت استعمال جسر !»

ثم لخص الموقف بعبارة واحدة:

«الآن تقرأ الفتاة معنى إجاباتك فتدرك أنك شخص محاط بالمشاكل وبرغم هذا هو سلبي جدًا .. شخص بلا طموح ومنغلق يكره الناس وشديد التعاسة .. شخص يميل لها لكن هذا الميل غير قوي، وهو مستعد للتخلي عنها ببساطة .. »

صحت في جنون وقد بدا لي هذا غير عادل:

«هذه الألعاب السخيفة ..!.. لا يمكن أن تحكم على إنسان لمجرد أنه يحب الأفيال !.. هذه الألعاب تكون ملفقة دائمًا ولا علاقة لها بالطب النفسي»

قال عصام في برود:

«أنا لا أحكم عليك .. هي التي ستحكم فقل لها هذا الكلام !»

«كنت احسبها أذكى من هذا !»

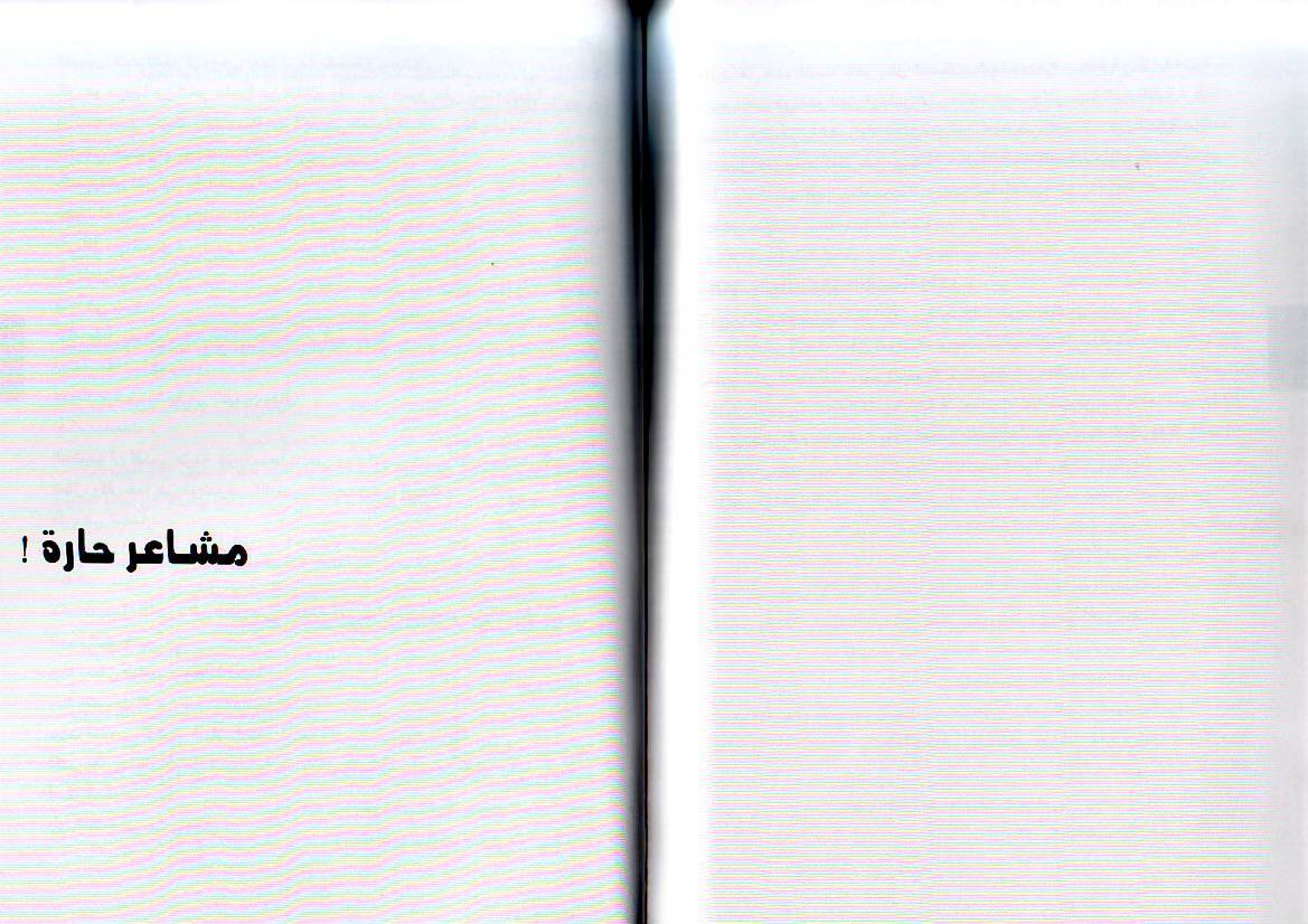
«وهي غالبًا أذكى من هذا .. لا اصدق أن شيرين تعتمد على هذه الاختبارات على كل حال .. لكنني تذكرت الآن قصة (رابطة ذوي الشعر الأحمر) من قصص (شيرلوك هولمز).. في هذه القصة ظفر بطل القصة بوظيفة مريحة مريحة هي أن يذهب كل يوم لمكتب في آخر لندن ليجلس على مكتب وينسخ الموسوعة البريطانية .. هذه الوظيفة بدت غريبة لشيرلوك هولمز وقد راح يحقق في القصة .. في النهاية عرف أن الغرض كان إبعاد الفتى عن مسكنه بشكل ثابت منتظم، لأن هناك عصابة تحفر نفقًا من هذا المسكن إلى المصرف الذي يقع تحته !..»

قلت في حيرة:

«ما علاقة هذا بقصتنا ؟»

لوح بكيس الحلوى الذي كنت أحمله وقال:

«شيرين لم تهتم ذرة بهذا الاختبار .. فقط كانت تريد منك أن تجلس أمامها مغمض العينين لبعض الوقت .. هل تعرف السبب ؟.. أعتقد أنك لن تجد شيئًا في كيس الحلوى الذي ابتعته هذا.. لقد نقلت كل محتوياته إلى حقيبتها بينما أنت غارق في الاختبار النفسي .. دعابة قاسية ذكية لا تصدر إلا عن شيرين .. وأعتقد إنني بدأت أميل لهذه الفتاة .. كنت أنت بعيد النظر عندما أحببتها .. بعيد النظر فعلاً !!»



مشاعر حارة !

جالسًا في الشرفة مع (عصام) في ذلك اليوم الحر القائظ نشرب عصير الليمون، كنت أشعر أن روحي ذاتها لزجة ملتصقة بأحشائي ..

كان هو مرهقًا من الحر عاجزًا عن الكلام، وقد نبت العرق على شفته العليا ..

إن لديه جهاز تكييف لكنه معطل ولا أحد في الصيانة يكلف خاطره بزيارتنا ..

قال في خبث وهو يجفف عرقه:

«الحرارة لن تقل عن مائة فهرنهايت !»

نظرت له في حيرة، وطلبت منه أن يفسر أكثر، فقال:

«أي 38 درجة مئوية .. الأمر سهل .. إطرح 32 ثم اضرب في 9/5 ..

كل طفل يعرف هذا ..»

قلت في ضيق:

«وكل طفل يعرف أن الحرارة لن تقل عن ستين مئوية ..

أعتقد هذا .. أشعر به»

ضحك ورشف رشفة من الليمون وقال:

«هذه مبالغات ..

الحقيقة أن أقصى درجة حرارة سجلت على وجه الأرض كانت 57 درجة مئوية في الظل، وكان هذا في موضع من كاليفورنيا اسمه (وادي الموت)..»

قلت في انتصار:

«في الظل !.. هل سمعت ؟»

«أنا قلت هذا ..

فكرة تسجيل الحرارة في الظل هي محاولة منع حرارة الترمومتر من الارتفاع عن الهواء المحيط به ..

هذا يعطي قياسات خاطئة تمامًا ..»

ساد الصمت إلا من صوت أنفاسنا الثقيلة ..

بدأت الشمس تنكسر قليلاً.. أعتقد أن هذه المحنة إلى زوال قريبًا ..

لكني وقد بدأ الكلام عن الحرارة والحر، تذكرت قصة مررت بها مؤخرًا وخطر لي أن أسأل (عصام) عنها ..

رأى النظرة في عيني فقال :

«هلم .. قل ما عندك..»

«مجرد قصة سخيفة لكنها مسلية ..

لا أعرف كيف يجتمع السخف مع التسلية .. ربما أردت القول إنها تافهة..»

ثم فكرت قليلاً وبدأت أحكي ..

••••••

يبدو لي أن السبب الوحيد الذي يجعل صديقين يتشاجران ويختلفان هو الأنثى .

الرجال ليسوا من النوع الذي يغار بسبب الأناقة أو بسبب ثوب جديد، ولا يغار واحد منهم لأن زوج أخت زوجته قام بتجديد غرفة الصالون أو ابتاع سيارة جديدة ..

أعتقد أن الأنثى هي السبب الوحيد الذي يجعل الرجال يتشاجرون ..

ولعلها من تقاليد القبيلة قديمًا، عندما كان الرجال يصطرعون فتصير إناث القبيلة للأقوى أو الأفضل ..

كان (مصطفى) و(رمزي) شابين يعملان في أحد الأفران العصرية الحديثة، حيث يتم خبز البيتزا وتلك المعجنات التي عرفها مجتمعنا حديثًا ..

كانا مسئولين مع رجل ثالث عن الفرن الذي يتم فيه خبز الحلوى، وهو أقرب إلى غرفة عملاقة لها نافذة من الزجاج الحراري مع (ثرموستات) يتحكم في درجة الحرارة ..

(مصطفى) له خطيبة رقيقة تعمل في متجر ثياب قريب، وقد كانت تمر عليه في الصباح والمساء لتبتاع بعض الخبز، أي إنها كانت تأخذه هدية طبعًا ..

وكان يوصلها لبيتها .. يوم الخميس كانا يخرجان للنزهة ..

على أن القلوب مراوغة بطبعها، وقد بدأ نوع من التجاذب بين (مها) – اسم الفتاة – و(رمزي) ..

بدأ بنظرات إعجاب ثم كلمات .. ثم لقاء .. وفي النهاية عرف مصطفى أنه تقريبًا قد خسر خطيبته ..

راح لرمزي في بيته، وقال له إن الرجل الذي يخسر صديق عمره من أجل فتاة ليس برجل، وإنه لا يتصور أن تأتي الخيانة من صديقه ..

هذه هي القصة كما يحكيها (مصطفى)..

في النهاية وعده (رمزي) بأن يقطع علاقته مع الفتاة .. أنا وأنت نعرف أنه لم يفعل ذلك ..

وجاء أولاد الحلال يخبرون مصطفى الواقف جوار الفرن أن رمزي في الحديقة مع مها .. هكذا ترك من يأخذ مكانه وهرع إلى هناك ليجد عاشقين رومانسيين يحلقان في سماء الأحلام .. كانت هناك مشاجرة واتهامات متبادلة ..

سوف اختصر على كل حال ..

أنت تعرف هذا النوع من القصص ..

نأتي الآن لليوم الموعود عندما جاء رمزي إلى عمله في الفرن ..

كانت هذه بداية اليوم ولم يأت الزبائن ولا العاملون بعد ولم يأت شريكهما الثالث الذي أخبرهما أنه سيتأخر ساعتين ..

لم يتبادل الصديقان اللدودان أية كلمة وانهمكا في رص العجين ..

فقط نظر مصطفى إلى النافذة الزجاجية وصرخ في رعب واشمئزاز أنه رأى فأراً داخل الفرن!..

كانت هذه كارثة ..

المخبز راق يعنى بالنظافة بشكل كبير ..

دخل الصديقان إلى الفرن الخامد وراحا يفتشان، وكما قلت لك فالفرن متسع يسمح بدخول رجلين ..

لم يكن هناك شيء ..

قال رمزي إنه يعتقد أن مصطفى واهم، لكن هذا الأخير اصر على كلامه ..

إلى هنا تختلف القصتان .. رمزي قال إنه جثا على ركبتيه يبحث عن الفأر، لحظات ثم سمع الباب يوصد ..

الباب الذي لا يفتح إلا من الخارج !..

نهض مذعوراً ليرى ما هنالك فرأى عبر النافذة الزجاجية مصطفى يتجه إلى قرص الثرموستات ويقوم بتشغيل الفرن !...

رآه يرفع درجة الحرارة إلى 140 درجة مئوية دون أن ينظر له !..

فقط رفع عينه ليبادله نظرة باردة صلبة قاسية، ثم انهمك في العمل ..

يقول رمزي إنه راح يصرخ ويضرب الباب بقوة، لكن الحرارة كانت ترتفع فعلاً.. هل جن مصطفى ؟.. لو احترق رمزي فلن يفلت مصطفى من العقاب ..

إنه الإعدام !..

لكن حتى لو مزقوه إلى أشلاء تلتهمها الكلاب فلن يفيد هذا رمزي في شيء، ولن يغير حقيقة أنه سيموت حرقًا في فرن !

أسوأ كوابيسه يتحقق، ولن يظهر كائن حي قبل نصف ساعة يكون هو قد تحول فيها إلى دجاجة مشوية ..

راح يصرخ ويضرب الباب ويتوسل، وراح يخدش الباب من الداخل بمفاتيحه .. ثم ابتعد عن الباب والجدران وقد أدرك أنها تسخن بلا انقطاع . أمله الوحيد هو أن يأتي أحد في هذه اللحظات ..

مصطفى قد جن ..

هذا هو التفسير الوحيد ..

لهذا لا يعبأ بتبعات هذه الجريمة ولا يهمه ما سيحدث له بعدها ..

يقول رمزي إنه كان موشكًا على الجنون بدوره عندما انفتح الباب فجأة !

عندما خرج أدرك أن عشر دقائق مرت عليه بالداخل، ولم يجد مصطفى ...

هذه هي قصة رمزي، أما مصطفى فيحكي بطبيعة الحال قصة مختلفة تمامًا عن كراهية رمزي له وتلفيق التهم طيلة الوقت ليخلو له الجو مع (مها)..

يؤكد أنه تأخر في ذلك اليوم عن الذهاب إلى الفرن.. كيف يضع رمزي في الفرن إذا لم يكن هناك أصلاً وقتها ؟

هكذا تصادمت حكايتان بلا شاهد ..

بالنسبة لنا في الشرطة لم نصدق حرفًا من حكاية رمزي ..

كيف يبقى إنسان في فرن درجة حرارته 140 درجة مئوية عشر دقائق ويظل حيًا ؟..

بل لا يترك هذا أي حروق أو آثار على جلده ؟..

رمزي كاذب وقد وجهنا له تهمة البلاغ الكاذب وإزعاج السلطات..

قصة طريفة هي وقد تذكرتها بمناسبة هذا الجحيم الذي نحن فيه ..

لا أطلب رأيك فالقضية منتهية ..

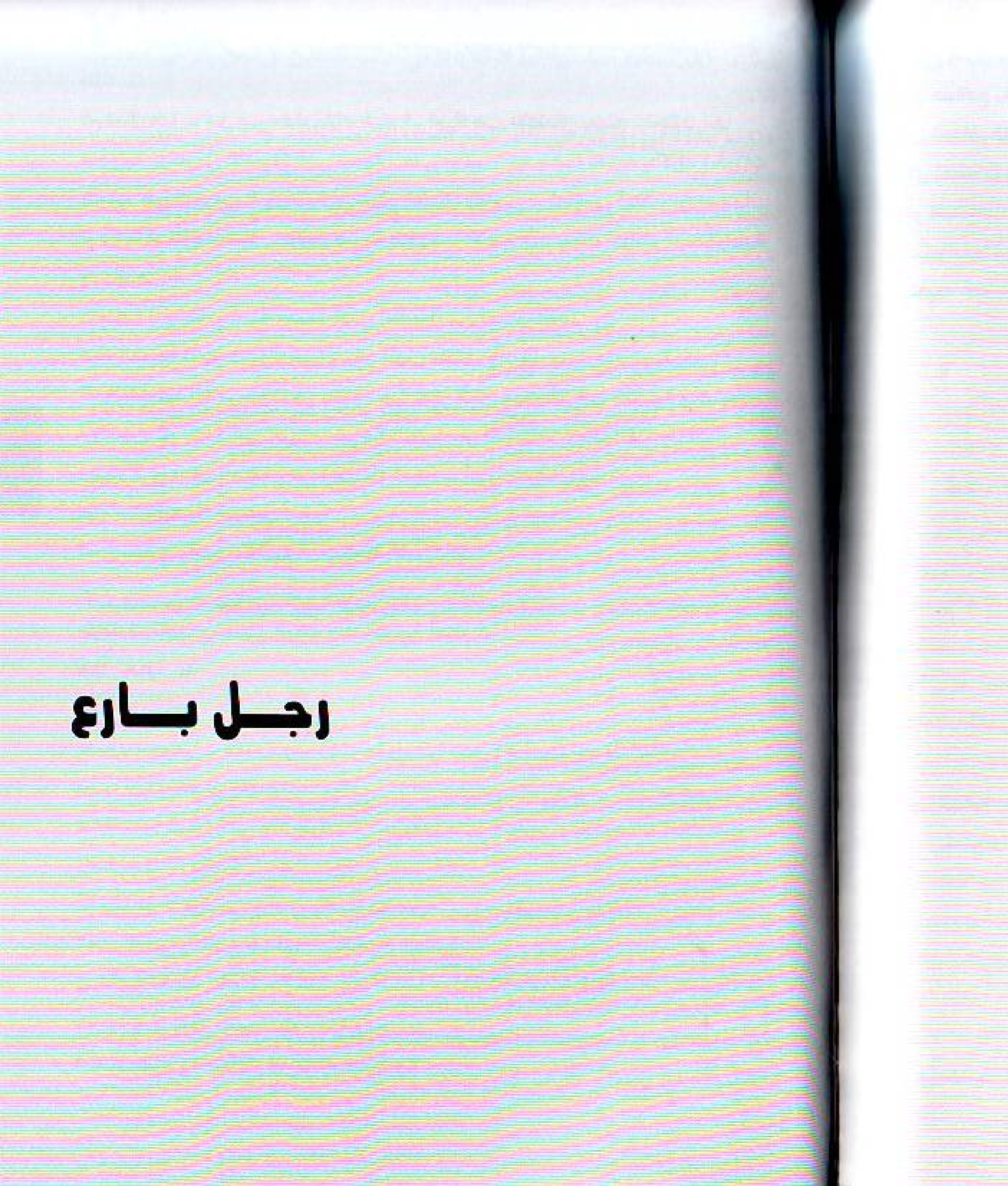
فقط أحكيها لأنني تذكرتها .

••••••

قال (عصام) وهو يفكر:

«عامة لا أميل إلى الاعتقاد بأن العاشق الجديد ميال للعنف ..
إنه ثمل من خمر الحب، ويكتفي بما أحرزه من نصر على منافسه فلا يرغب في مزيد من الإيذاء ..
العاشق المهجور القديم هو الذي تملأ نفسه المرارة ويكون أقرب إلى الانتقام ..
أنا أميل إلى تصديق قصة رمزي ..
وأعتقد أن مصطفى لم يهدف إلى قتله، وإلا لما أوقف الفرن ..
كان بوسعه ان يتركه فترة أطول بكثير .. كان يهدف إلى تعذيبه وإخافته وتلقينه درسًا قاسيًا .. »
قلت محتجًا:
«وموضوع الصمود في الفرن هذا ؟.. هذه قصة لا تنطلي على طفل ..»
قال في غموض:
«أنت لا تتصور قدرة الجسم البشري على تحمل الحرارة ..
عندما يكون الهواء حولك جافًا يمكن لجسدك أن يتحمل حرارة تبلغ 160 مئوية .. هناك عالمان فيزيائيان بريطانيان هما (بلاجدن) و(جنتري) جربا البقاء في فرن خبز وسجلا هذه الحرارة، بينما يقول العالم تندال: إن الإنسان يتحمل درجات حرارة صالحة لقلي اللحم وسلق البيض ..»
«وكيف ؟»
«الجسم يحاول التكيف مع هذه الحرارة عن طريق بخر العرق، وبهذا يحافظ على حرارته ثابتة .. لكن يجب أن يتحقق شرطان: ألا يلمس الجسم شيء ، وأن يكون الهواء جافًا لأن الهواء الرطب يقلل من تحمل الحرارة بدرجة غير معقولة . في قصتك هذه تحمل رمزي حرارة تقدر بـ 140 مئوية لعشر دقائق ولم يلمس الجدران .. العلم يقول إن هذا ممكن .. لو أنكم ذهبتم فوجدتم جثة متفحمة لما جرؤتم على اتهام رمزي بالكذب، لكن نجاته جعلته كاذبًا في رأيكم !..
الناس تصدق الجثث أكثر من سواها !»
قلت له في حيرة:
«لكن من المستحيل أن نثبت هل هو كذاب أم محظوظ .. »
قال باسمًا:
«لو وضعتم الأمر في أذهانكم لوجدتم الدليل .. هناك شهود قد يكونوا رأوا مصطفى

يدخل المخبز في ساعة مبكرة، وهذا يدحض روايته.. شهود على ارتباكه وتوتره بعد خروج رمزي من الفرن ..
آثار مفاتيح رمزي على باب الفرن من الداخل .. كل هذا يدعم قصة رمزي ..»
كان الظلام قد حل تقريبًا وهبت أنسام رحيمة .. فتنفسنا ملء رئاتنا ..
قال (عصام) وهو يدفع مقعده المتحرك:
«لو كنت أملك حرية الحركة لقضيت الليلة نائمًا على بلاط الشرفة، لكن هذا ليس ممكنًا .. والأسوأ هو قصتك تلك عن الناس المحبوسين في أفران .. إنها أحداث ملتهبة أكثر مما يجب بالنسبة لي!»


رجل بارع

لا أشعر بأية راحة عندما تمضي زوجتي بضع ساعات مع مدام (نازك) تلك ..

ثم تعال هنا .. من هي مدام نازك هذه ؟.. امرأة هي الافتعال بعينه . تعتقد أنها محجبة برغم كل الأصباغ التي تضعها على وجهها، وحجابها نفسه يذكرك بخوذات الجنود في الحروب البيزنطية أو أفلام الخيال العلمي .. ثم إنني أعتقد أن اسمها ليس مدام نازك أصلاً .. فقط هي تفضل هذا الاسم لأنه يبعث خواطر أرستقراطية في الذهن ..

الخنافة المفتعلة خاصة عندما تقول (مارينا) من أعماق أنفها ..

هذه السيدة تقيم في (الدقي) ويبدو أنها مطلقة، ولديها حشد من الصديقات المماثلات لها اللاتي يجتمعن عندها من حين لآخر، فيفرطن في النميمة ويشتمن أزواجهن، ثم تنظر هي إلى زوجتي وتنصحها بأن تطلب من زوجها كذا وكذا ..

«كيف لا تمضين الصيف في (مارينا) ؟.. يجب أن يتصرف زوجك ..

هذه مشكلته يا حبيبتي ..

نحن نشقى ونتعب وعليهم أن يدفعوا الثمن ..»

أو:

«كيف لم تجددي عفش البيت منذ خمسة أعوام ؟..

هذا خطأ ..»

أو:

«هناك مجوهرات ممتازة وسعرها معقول في محل (أنطوان) بوسط البلد..

يجب أن تأخذي زوجك هناك »

هكذا تعود لي زوجتي وقد أدركت أن حقوقها ضائعة وأنني وغد، وهكذا أصارحها بأننا لسنا أثرياء ..

أنا ضابط لا يرتشي، وراتبي يكفينا بصعوبة كي تخترق سفينتنا هذه المستنقعات الضيقة الوعرة التي نقابلها في الحياة اليومية ..

لسنا من طبقة عاجزة عن التصييف لكننا لسنا كذلك من الطبقات التي تصيف في مارينا .. لا أقدر على شراء مجوهرات ..

فلتفعل ذلك مدام نازك إذا كانت متحمسة ..

الخلاصة انني لم أعد أطيق هذه المرأة لكني كنت كذلك عاجزًا عن منع زوجتي من زيارتها فهي تسلية أساسية لها ، وأنا بطبعي لست دكتاتورًا أو ممن يتلذذون بتعذيب الآخرين ..

عندما عادت لي زوجتي في ذلك اليوم كانت متحمسة وأنفاسها تتقطع انفعالاً ..

قالت لي:

«أنت تعرف أن مدام نازك تحب أن تفاجئ صديقاتها بشيء جديد في كل مرة ..

هذه المرة قدمت لنا ساحرًا من غانا يدعى (ماكيبو).. »

إذن هناك ماكيبو ... ابتسمت وقلت لها:

«هل يحمل رمحًا ويلتف بجلد نمر ؟»

قالت وهي لا تكاد تستجمع أنفاسها:

«لا .. لو رأيته لوجدت رجلاً أفريقيًا ضخم الجثة يلبس عوينات سميكة وبذلة كاملة .. هذا كل شيء ..»

«هذا مخيب للآمال ..»

«قالت لنا إنه يمارس ديانة غريبة تعبد الأرواح اسمها (الودونية)..

وإنه سوف يثير دهشتنا ..

كانت شديدة الاحتفال به وقد أجلسته في مكان مميز على حين أحطنا به .. طبعًا كان هناك الكثير من البخور ..

إنه غريب الأطوار لكنه ليس مرعبًا .. »

«نعم .. وطبعًا كل النسوة المتمردات إياهن كن معك ..»

تجاهلت ملحوظتي وقالت في حماس:

«طلب بالإنجليزية من واحدة منا أن تعطيه خمسين جنيهًا ..»

«هذا سحر خارق فعلاً .. ومن الحمقاء التي فعلت ذلك ؟»

«أنا تطوعت بذلك .. »

هنا جن جنوني .. لماذا أنت بالذات ؟..

لماذا ليس مدام نازك أو أية واحدة من تلك المدعيات ؟..

«في البداية طوح الورقة في الهواء فاختفت ..

ثم طلب مني أن أجري بعض الحسابات ولا أخبره بالنتيجة. سألني عما إذا كنت أعرف الشارع جيدًا .. قال لي إنني سأجد المبلغ مضاعفًا في مدخل بناية معينة ..

هكذا نزلت مع صديقاتي وهرعنا إلى البناية التي ذكرها، وعندما وقفت في المدخل نظر لي البواب في شك، ثم سألني إن كنت ابحث عن شيء ما .. أعطاني مظروفًا فتحته فوجدت به مائة جنيه !»

ثم لوحت بالورقة ذات المائة جنيه في الهواء في حماس ..

وراحت ترقص عبر الغرفة ..

أروع شيء في العالم هو المال الذي لم تتعب في الحصول عليه كما يقول (مارك توين)..

قلت لها في شك:

«الأمر واضح .. لقد رتب الأمر مسبقًا مع بواب البناية ..»

«مستحيل يا حبيبي ..

هو لم يعرف النتيجة قط !!...

هذه الورقة وُجدت في اللحظة التي أنهيت فيها الحسابات في سري ...!»

«وعدتن له ؟»

«نعم .. عدنا له فقال إنه لا شيء غريب في هذا ..

السحر أقوى مما نظن ...

هو مستعد لأن يكرر التجربة مع أي مبلغ وفي أي وقت.. لكن ليس اليوم لأنه مرهق»

«وطبعًا أنت تفكرين في التجربة من جديد ؟»

«لقد ضاعفت الخمسين، فماذا عن مضاعفة خمسة آلاف ونكون قد جمعنا المال اللازم لتجديد الشقة ؟»

«بصراحة لا أفهم ..

هل الأرواح تطبع مالاً ؟..

وما الذي يستفيده هو ؟..

حسب فهمي للأمور هو لم يستفد سوى أن خسر خمسين جنيهًا ..»

«طلب أجرًا رمزيًا .. دفعته مدام نازك ..

إنها تحب أن ترانا منبهرات ..»

كانت بثياب الخروج كما هي، لذا طلبت منها أن تستعد لأننا سنذهب إلى صديقي (عصام).. سوف يسمع القصة ويفسرها لنا ..

••••••

رحب بنا (عصام) ثم خرج بالمقعد المتحرك إلى الشرفة كعادته في الصيف، وطلب من (عفاف) أن تجلب لنا مقعدين ..

طلبهما بتلك الطريقة المهذبة التي تطلب بها الشيء من زميلة عمل لا خادمة ..

لا بأس ببعض المياه الغازية كذلك على سبيل المرح.

قال لزوجتي ضاحكًا:

«القصة التي تحكينها ركن ثابت في صفحات الحوادث هذه الأيام ..

يخيل لي أن القاهرة تم استبدال ملايين السحرة الأفارقة بسكانها ..

فيما بعد لن يجدوا عملاً سوى أن يخدعوا بعضهم»

قالت له في تحفز:

.«أفهم أنه يخدعني ..

لكن كيف ؟ ..

أنا لم أفتح فمي قط ..

كيف خمن رقم البناية ؟»

قال لها (عصام) وهو ينظر إلى الشارع :

«هلا حكيت لي ببساطة ؟»

قالت زوجتي وهي تنظر لي نظرة نارية:

«أولاً قال لي أن أحسب في سري آخر أربعة أرقام من رقم هاتفي ..

لا تقل لي إنه يعرفه من فضلك لأن هذا الرقم جديد كما تعلم»

قال (عصام):

«لم أقل أي شيء .. أرجو أن تواصلي»

«طلب مني أن أعكس الرقم ..

يعني بدلاً من 4356 أجعله 6534 ..

اطرح الرقمين من بعض ولا أخبره بالناتج .. »

«هذا سهل وإن كان بحاجة لآلة حاسبة ..»

«طلب أن اجمع الأرقام في العدد الناتج معًا ..

وأكرر الجمع حتى لا يبقى سوى رقم واحد ..

لا أصرح به ..

مثلاً لو صار الناتج 19 جمعت الرقمين 1 + 9 لأحصل على 10 ..

هذه تُجمع لتصير (واحد) .. »

هنا اتسعت ابتسامة (عصام) أكثر ..

قالت زوجتي:

«هذا الرقم الأخير الذي لم أخبره به هو رقم البناية التي يوجد المال فيها ..»

قال (عصام) وهو يوشك على الانفجار ضحكًا:

«تعالي نجرب في رقم هاتفي أنا ..

الأرقام الأربعة الأولى هي 2367 ..

نقلب الرقم ليصير 7632 ..

حاصل طرح هذا من ذاك هو 5265 ..

سوف نجمع 5 + 6 + 2 + 5 . الناتج هو 18 ..

لكن لابد من تحويله إلى رقم واحد لذا نجمع 8 + 1 الناتج هو 9 ....»

قالت زوجتي في دهشة:

«تسعة !..

نفس الرقم الذي نتج معي !..

يا له من حظ !!»

قال (عصام):

«ألم تفهمي بعد ؟... مهما فعلت سيكون ناتج هذه العملية هو تسعة !.. هذه من الألعاب الرياضية الشهيرة جدًا .. تُستخدم بكثرة في الحفلات .. كل ما كان على هذا الساحر هو أن يترك مظروفًا به مائة جنيه مع حارس البناية رقم تسعة مع تعليمات بأن يعطي المظروف للمرأة التي تبحث عن شيء في المدخل ! .. طبعًا دفع للحارس مالاً أو هما شريكان»

«وماذا يستفيده من هذا ؟»

«يبذر القليل ليجني الكثير .. سوف تجدين كل واحدة من تلك النسوة الجشعات تأتيه في المرة القادمة ومعها مائة ألف أو عشرة آلاف جنيه وهي تطالبه بأن يضاعفها لها .. طبعًا سوف يحدد لها عنوانًا لا وجود له، وموعدًا يكون بعد رحيل طائرته إلى غانا !»

قلت أنا في غيظ:

«أنت نفسك كنت ستعطينه خمسة آلاف وأنت تعرفين كيف استطعنا أن ندخرها !»

قالت زوجتي في حرج :

«هل تعني أنه يخدع مدام نازك ؟»

«يخدع الجميع .. ما لم يكن متفقًا مع هذه المرأة على قسمة دخل النصب .. الحق إنني لا استريح لها البتة»

نهضت زوجتي في عصبية وصاحت:

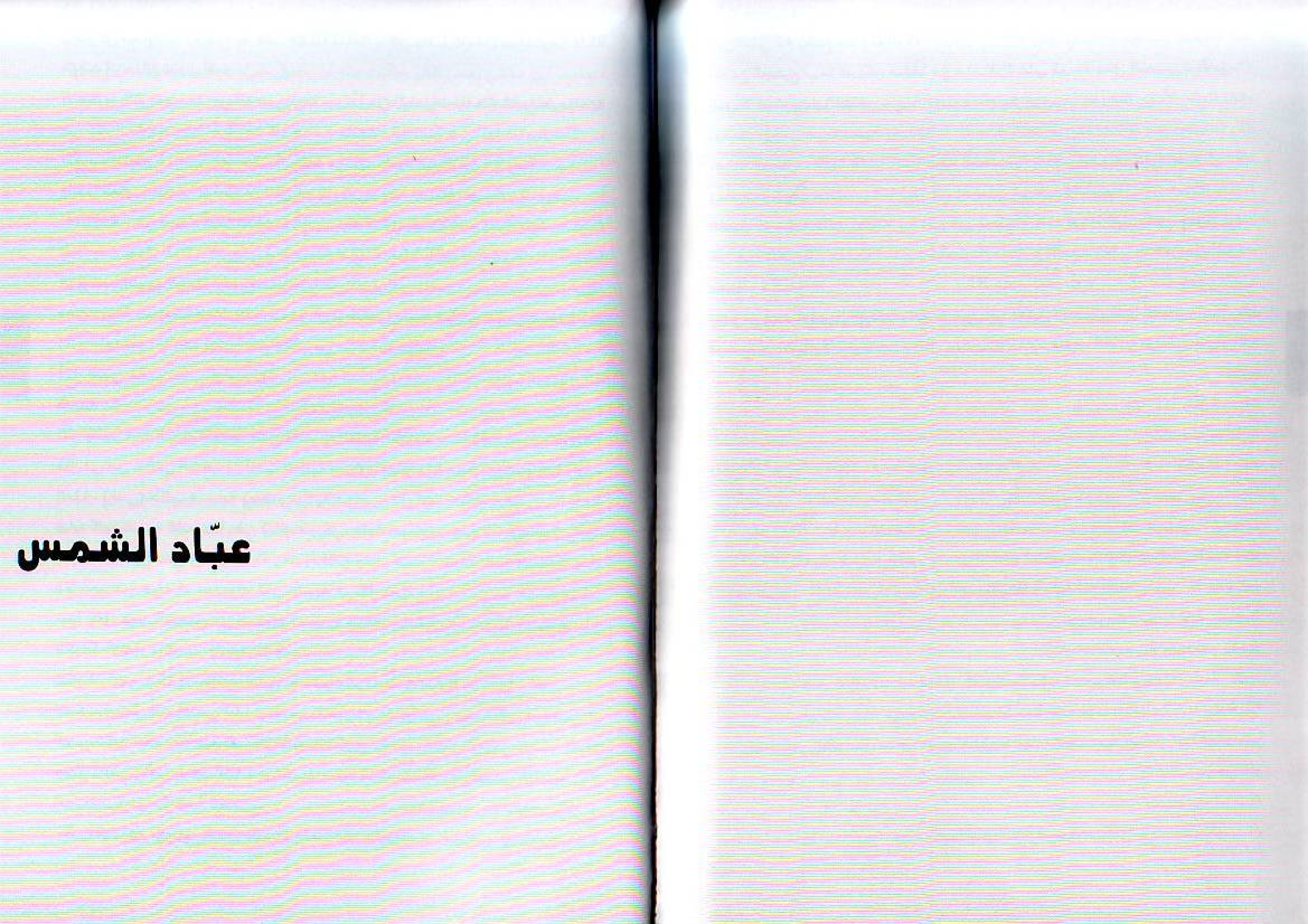
«هكذا الرجال .. كلما قابلوا امرأة قوية الشخصية تعرف كيف تستغني عنهم !»

وغادرت الشرفة حانقة .. هنا نظر لي (عصام) في فهم وابتسم ..

النساء !.. هكذا قالت نظرته .. لكني في الحقيقة كنت أفكر: كم سيكون جميلاً لو كان هذا الأفريقي صادقًا .. كنت سأستبدل معاشي وأبيع سيارتي وشقتي من أجل مضاعفة المبلغ ..

يبدو أن (عصام) رجل الأرقام سمع ما أقول في ذهني لأنه قال على الفور:

«واضح أن الأرواح لا تجيد صنع المال ، لكنها بالتأكيد تعرف الكثير عن الرياضيات ..»



عبّاد الشمس

كان ذكيًا.. وكنا جميعًا نعرف هذا ..

برغم كل محاولاتنا للإيقاع به، فقد فشلنا تمامًا .. كان حذرًا كالثعالب ويفترض طيلة الوقت أن هناك من يراقبه ..

الإخبارية التي وصلتنا هي أنه يبيع نوعًا جديدًا من المخدرات باهظة الثمن في واحدة من تلك الجامعات الخاصة. مشكلة هذه الجامعات الخاصة هي أنها تقتصر على الأثرياء المترفين، والذين لم يحقق أبناؤهم درجات كافية في الثانوية العامة .. هكذا يدخل الفتى الجامعة شاعرًا أن المال هو كل شيء، وأنه استطاع أن يقهر المتفوقين بمال أبيه . في وسط كهذا تنتشر عادات سيئة لا أول لها ولا آخر ومن بينها المخدرات. يقول الممثل الأمريكي (روبين ويليامز) ساخرًا: «المخدرات هي الطريقة التي تخبرك بها الحياة أنك تكسب أكثر من اللازم !».

وهي مقولة صحيحة فعلاً، والسبب هو ان (ويليامز) نفسه تعاطى المخدرات لفترة ثم أقلع عنها بعد ما رآها تطيح بحياة كثيرين من نجوم هوليوود.

لقد انتهى عصر عقار الهلوسة (ال اس دي) كما يبدو، وصار (الاكستازي) موضة قديمة ..

الآن يظهر هذا العقار الجديد الذي يشتريه الطلبة الأثرياء ببساطة برغم غلاء ثمنه.

قال لي ابن خالتي الشاب إن أغلب الطلبة يعرفون أن (رامي) هو الذي يبيع هذا العقار. (رامي) طالب هندسة يحضر للكلية في سيارة رياضية باهظة الثمن ..

ثيابه كلها غريبة كأنه يمثل في فيلم أمريكي. فقط هو يصر على وضع ملصق زهرة (عباد الشمس) على زجاج سيارته وعلى دفاتره وعلى صدر سترته. حذر وصموت ، فلا تجد من حوله إلا صديقته التي تشبهه في كل شيء ..

«وما دخل عباد الشمس في الموضوع ؟»

«ارتباط الأزهار بالهيبيز والمخدرات قوي ..

تذكر أن الهيبيز كانوا يطلقون على أنفسهم اسم (أبناء الأزهار)»

اتصلت ببعض الزملاء في إدارة مكافحة المخدرات، فقالوا لي إنهم يشكون في أمر الفتى، لكنه حذر جدًا ولم يضبط متلبسًا قط ..

«نحن نلاقي الأمرين في إدانة من نضبط معهم مخدرات» - يقولها لي النقيب (مصطفى) من مكافحة المخدرات -

«لأن محاميهم يكونون بارعين يجيدون هدم القضية وإظهار خلل في الإجراءات ..

فما بالك بالفتى الذي لم نجد معه مخدرات قط ؟»

هكذا قمت بالعمل الوحيد الممكن ..

أعطيت ابن خالتي بعض المال وطلبت منه أن يحاول شراء بعض المخدرات من (رامي) هذا. لو نجح فسوف اجعله يعاود الكرة طبعًا في وجود كاميرا تسجل كل شيء بإذن من النيابة ..

لكن ابن خالتي عاد لي وقال :

«لم تنطل عليه اللعبة ..»

ثم حكى لي إنه ظل يحوم حول (رامي) قبل أن يتجه له، ويتكلم عن إدمانه السابق لعقار الهلوسة وكيف إنه في أمس الحاجة إلى مخدر جديد ..

ظل (رامي) يصغي إليه صامتًا وهو ينظر له من خلف زجاج نظارته الوردية، ثم سأله في تهذيب:

«وما شأني أنا ؟»

قال ابن خالتي:

«هل تعرف من يبيع هذه الأشياء في كليتنا ؟»

قال (رامي) وهو يبتعد:

«ومن قال لك إنني أفهم هذه الأشياء ؟..

أنا لا أطيق مجرد رائحة السجائر .. ونصيحتي لك هي: العب غيرها !»

حكى لي ابن خالتي هذه القصة فهتفت في حماس:

«لاحظ آخر ما قاله ..

إنه يعرف أننا نعرف أنه يبيع المخدرات ..

اللعب على المكشوف وهو فقط يتحدانا أن نثبت عليه شيئًا ..»

وهكذا اتخذت قراري ..

يمكنني متى أردت أن أبدو شابًا، وهكذا غيرت تسريحة شعري، وارتديت بعض الثياب (الكاجوال) وحذاء رياضيًا ونظارة سوداء، واتجهت بسيارتي إلى تلك الكلية الخاصة ..

طبعًا حسبتني زوجتي جننت ولحسن الحظ أن الأولاد لم يروني ..

كان ابن خالتي ينتظرني هناك، وإن اتفقنا على ألا نمشي معًا لأن الفتى يعرفه الآن .. أشار بطرف إلى (رامي) هذا ..

رأيته أول مرة وهو يجلس على سيارة في تحد وشيء من الوقاحة جوار فتاته، كان

بالفعل غريبًا في كل شيء حتى بمقاييس جامعة عجيبة مثل هذه ..
كان يحمل في يده ثلاثًا من أزهار عباد الشمس، يتأملها في اهتمام هو يكلم فتاته..
من الغريب أن يكون هذا الفتى رومانسيًا لهذا الحد .. على كل حال هناك حوض أزهار كامل خلفه ومن السهل أن يقطف منه ما يريد.

هنا رأيت فتاة تحمل بعض أزهار عباد الشمس بطريقة عارضة كأنها اقتطفتها من الحديقة ..

نحو خمس منها ..

رأيتها تتجه نحو (رامي) هذا، فتتبادل معه حديثًا ضاحكًا ثم تدس في يده شيئًا ..

هذه نقود !..

لكن ماذا سيحدث بعد هذا ؟

لا شيء ..

وقفت تتكلم معه قليلاً ولم يعطها أي شيء .. ثم انصرفت ..

مشيت وراءها فوجدتها تركب سيارتها وتغادر الكلية ..

لو كانت ابتاعت منه مخدرات فمتى تحصل عليها ؟..

هل سيقابلها خارج الكلية إذن ؟. هناك نقطة مهمة في هذه الحوادث هي أن عملية التسليم والتسلم تتم داخل الكلية لأنها مكان أبعد عن الشبهات ..

سلطة الشرطة محدودة نوعًا هنا بينما يمكن لأي مخبر أن يستوقفه في الخارج ويفتشه .. معنى هذا أنه يجب أن يسلمها (البضاعة) هنا، لكن كيف؟..

لقد رحلت فعلاً ..

هل في يوم آخر ؟..

متى وكيف ؟

هذا الفتى بحاجة إلى فريق كامل من المخبرين يراقبون سكناته ..

لن أقدر على هذا وحدي ..

دعك من أن رجال مكافحة المخدرات جربوا كل شيء فعلاً...

على كل حال أنا أعرف يقينًا أن أزهار عباد الشمس هي علامة التعارف .

هو يحمل الأزهار وزبائنه يحملونها . لن يثق في شخص يأتيه خالي الوفاض.

طبعًا لم أجرب أنا هذه العملية وإنما كلفت بها واحدة من معارفي.

لقد كان الفتى يقف جوار السيارة في كسل كعادته وهو يحمل زهرتين من عباد

الشمس. اتجهت الفتاة نحوه وهي تحمل خمسًا من تلك الأزهار وبدأت معه تلك المحادثة السخيفة عن دماغها الموشك على الانفجار وعن حاجتها لمخدر جيد. لكنه نظر لها في برود ولم يقل شيئًا .. في النهاية قال لها:

«يجب أن تبحثي عن طبيب يعالجك من الإدمان ..

أنا طالب هندسة ولا أفهم في هذه الأمور»

كدت أجن غيظًا وأنا أراقب المشهد من بعيد وقد فهمت من إيماءاته أنه يرفض ..

لابد من طريقة سحرية تجعله يبيع. ربما كان لا يبيع إلا لزبائن معروفين، لكن لابد من مرة أولى دائمًا يقابل فيها زبونًا جديدًا ..

هل يعتمد على أسلوب (فلان يعرف فلانًا) ؟

بعد ما انصرفت الفتاة بقليل اتجه نحوه فتى يحمل ثلاث زهرات. سرعان ما كان يأخذ المال والفتى ينصرف كالعادة من دون أن يأخذ شيئًا. ما معنى هذا ؟

••••••

حكيت لصديقي العبقري (عصام فتحي) الذي لا يفارق كرسيه المتحرك هذه القصة، وكان هذا في الكلية التي يدرس الرياضيات فيها.

هذه المرة ظل يتابع قصتي في اهتمام وهو مقطب الوجه. ثم سألني:

«قلت إنه كان يحمل ثلاث زهرات في أول مرة والفتاة تحمل خمسًا ؟.. وفي المرة الثانية كان يحمل زهرتين والفتى ثلاثًا ؟»

«ربما كانت صدفة .. »

فكر حينًا ثم قال:

«ممكن أن تكون كذلك ... لكن رمز عباد الشمس يثير فضولي .. »

ثم تحرك بمقعده إلى مكتبته وأخرج كتابًا على غلافه صورة ملونة واضحة لزهرة عباد الشمس وقال لي:

«زهرة عباد الشمس هي المثال الأشهر لمتوالية (فيبوناتشي)..

السبب هو أن بتلاتها مرتبة بهذا الشكل المعجز، وقد قام علماء كثيرون بكتابة معادلات قائمة على ترتيب بتلات هذه الزهرة .. »

«معذرة .. ما هي متوالية (فوباتشي) هذه ؟»

«فيبوناتشي .. اسم العالم الإيطالي الذي وصف هذه المتوالية، لكنها تعود بالأصل إلى الطقوس الهندية القديمة وفي الأدب السنسكريتي كانت تدعى (جبل الإيقاع)..

هي موضوع مهم جدًا في الرياضيات وبالغ التعقيد بحيث لا أقدر على تبسيطه لك من دون معادلات، لكنه يرتبط كذلك بالنسبة (تاو) والنسبة الذهبية .. أي النقطة التي تقسم الخط بحيث تكون نسبة القسم الأكبر إلى الخط نفسه كنسبة القسم الأصغر إلى القسم الأكبر ..

«بالنسبة لرجل الشارع يكفيه أن يعرف أن متوالية (فيبوناتشي) هي المتوالية التي يكون فيها الرقم مساويًا لمجموع العددين السابقين له ..

لو بدأنا من صفر ثم واحد يكون الرقم الثالث هو واحد (صفر + 1) ..

الرقم الرابع هو (1 + 1 = 2) ..

الرقم الخامس هو (2 + 1 = 3) ..

الرقم السادس هو (3 + 2 = 5)..

وهكذا ...... »

قلت من جديد:

«لا أفهم علاقة هذا .....»

قال باسمًا:

«هي طريقة شفرية لمعرفة زبائنه الذين يعرفون متوالية فيبوناتشي هذه . من يعرفها يمكنه الثقة به ..

عندما يحمل زهرتين فعلى الزبون أن يحمل في يده ثلاثًا ..

عندما يحمل ثلاثًا على الزبون أن يحمل خمسًا ..

لو حمل ثماني زهرات فعلى الزبون أن يحمل ثلاث عشرة زهرة !...

لو افترضنا جدلاً أنه يحمل 89 زهرة فعلى الزبون أن يحمل 144 !!

«ما فعلته قريبتك الحمقاء هو أنها حملت له خمس زهرات وهو يحمل اثنتين .. هكذا فضحت نفسها .. »

«وكيف يتم التسليم ؟ »

«بعد ما يأخذ المال، يأتي العدد التالي من المتوالية ..

هو حمل زهرتين والزبون حمل ثلاثًا .. إذن المخدرات في رقم خمسة .. الشجرة الخامسة .. أو تحت المقعد الخامس ..

أو في خزانة الثياب الخامسة .. هذا شيء يهمس به للزبون لحظة التسليم. طبعًا ليس هو من يضع المخدرات في ذلك المكان .. هو لا يحمل إلا المال وهذه ليست جريمة .. وعلى الأرجح ليس الزبون هو من يحصل على المخدرات بنفسه بل يكلف صديقًا له بذلك لأنه يفترض انه مراقب»

قلت في حيرة وأنا امسك برأسي:

«والحل ؟.. كيف نوقع بهذا الشيطان خبير المتواليات ؟»

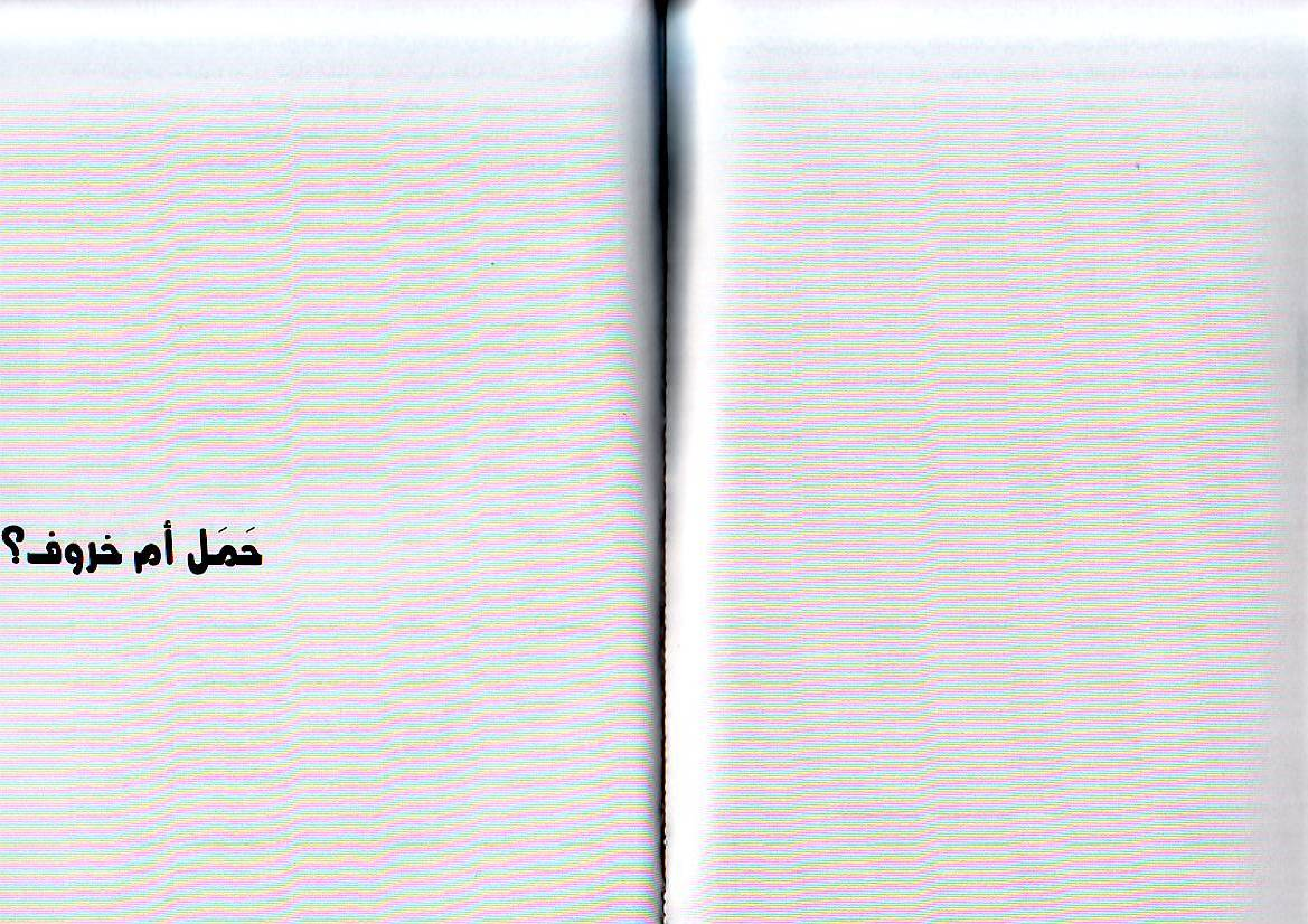
«سوف ترسلون مخبرًا شابًا من رجالكم يحمل أزهار عباد شمس يفي عددها بقوانين المتوالية كما يحددها رامي من يوم لآخر .. عندما يأخذ رامي المال سوف يقول له كلمة واحدة عن مكان المخدرات .. ولكن ..

اسمع !.. هذا عملكم لا عملي .. انا حللت لك الجزء الرياضي من القصة، وعليك ان تتولى الجزء البوليسي منها .. »

ثم قال ضاحكًا:

«تذكر أن تلبس ثيابك الأصلية وتستعيد تسريحة شعرك وإلا قبضوا عليك بتهمة التشرد .. »

لكني لم أعلق لأنني كنت أرسم في ذهني تفاصيل الخطة .. الخطة التي لم تعد تحتاج إلا إلى بعض العمل البوليسي المثابر كما قال هو بالضبط.


حَمَل أم خروف؟

كان (مصطفى داود) من هؤلاء القوم المفرطين في التفاؤل والتشاؤم. وكان يصدق كل حرف يرد في المجلات، ويقرأ الأبراج بعناية ويمكن أن يخنقك لو قلت له إن مؤلف هذه الأبراج هو سكرتيرة تحرير المجلة غاليًا .. عندما يرف جفنه الأيسر يتوقع كارثة، وعندما يشعر بتنميل في ساقه اليمنى يتوقع مصيبة.

عندما زرته في داره كان أهم ما استرعى انتباهي هو أن هناك ميزانًا في كل شيء في حياته. يوجد ميزان عملاق في الصالة. هناك ميزان جوار مقعد الصالون. هناك صور لموازين على الجدران، وسورة الرحمن مكتوبة بلون الذهب في لوحة كبيرة. فيما عدا هذا لا يوجد سوى تمثال صغير لنمر هندي يتلوى ويزأر ..

هناك بعض التماثيل والصور لحمل صغير يرعى العشب .. لكنها صور قليلة ..

عامة كان كل شيء أخضر .. لون المقاعد ولون الجدران ولون الستائر .. درجات مختلفة من الأخضر تبعث راحة حقيقة في النفس.

كان (مصطفى) قريبي وقد كان أول ما سألته عنه بالطبع هو هذا التواجد غير الطبيعي للميزان في حياته، فقال باسمًا:

«لا تنس أنني مولود في الأول من أكتوبر عام 1974 .. ما معنى هذا ؟»

فكرت قليلاً وقلت في ذكاء:

«معناه أنك كالخريف .. تتساقط أوراقك ويذبل قلبك في بطء !»

قال وقد اغتاظ من حماقتي:

«بل معناه أنني من مواليد برج الميزان يا فالح.. هذا البرج يسيطر على كل شيء في حياتي ومنه أستمد حظي وشخصيتي .. »

أبديت رأيي في أنني لم أحب كثيرًا أن يستخدم آية قرآنية لارتباطها بالميزان.

هذا لا يليق بالقرآن الكريم ويذكرني بطريقة محلات العصير في اختيار آيات بعينها من القرآن لتعلقها في المحل. بدا مهتمًا ووعد بأن يرفع هذه الآية.

نظرت إلى زوجته (مها) وسألتها عن عيد ميلادها فقالت:

«الخامس من إبريل .. عام 1979 .. برج الحمل لو كنت مهتمًا بهذه الأمور»

لو كان ما تقوله الأبراج صحيحًا فإن آخر برج يصلح لبرج الميزان هو برج الحمل هذا . لقد كانت (مها) زوجة قاسية متعالية باردة كالثلج وقد جعلت حياة (مصطفى) جحيمًا ..

لابد أن الأبراج خذلته في اليوم الذي طلب يدها فيه. بالنسبة للناس هما زوجان

شابان سعيدان وإن لم ينجبا بعد، لكنك لا تعرف كل ما يدور خلف الأبواب المغلقة. وقد صارحني مصطفى بأنه من أتعس الناس، لكنه من أسرة لا تجسر على الطلاق ولم تعتده ..

الأسر التي لا تجسر على الطلاق لا تميل كذلك إلى تهشيم رأس الزوجة كما تعرف..

قصة مصطفى مؤسفة على كل حال، لأنه أصيب بنوع قاتل من سرطان الدم وتوفي بسرعة في سن صغيرة نسبيًا. زوجته لم تكن مبالية جدًا بالأمر، ولولا أنني أعرف جيدًا أنه سرطان الدم لاتهمتها بقتله، لأنه كان ثريًا..

أذكر أنني زرته في المستشفى وبدا لي مسرورًا إلى حد ما ..

برغم شحوبه الشديد قال لي:

«على كل حال سوف أترك ثروة لا بأس بها بالنسبة لـ (مها)، ولسوف تبدأ حياة سعيدة من دوني ..

لكني سوف أتعبها قليلاً إلى أن تجد بيانات ممتلكاتي وعقاراتي ..

أنت تعرف مدى إيماني بالأبراج ..

وسوف يكون عليها أن تحل لغزًا صغيرًا يتعلق بها. أعرف أنها ستجد الإجابة سريعًا لأنها تملك غريزة الثعالب .. »

توفي مصطفى وكففت عن التردد المنتظم على بيته ..

لكني عرفت على الفور ما سيحدث.

زوجته سوف تبدأ بالتفتيش خلف كل لوحة ميزان وكل تمثال ميزان في شقته.

وعندما زرتها بعد أيام لم أجد بالفعل في البيت أي تمثال من تماثيل الموازين التي كانت تملأ كل مكان..

سألتها:

«ألم تجدي شيئًا بعد ؟»

قالت في عصبية:

«فليرحمه الله .. هي هوايته أن يعذبني ..

أنا أعرف ولعه بهذا الهراء والكلام الفارغ عن الأبراج والحظ .. هو من برج الميزان، وقد لعب هذا البرج دورًا مهمًا في كل اختياراته في حياته، لذا أتوقع أن الأوراق متعلقة بهذا البرج بشكل ما ..

لقد قمت بتحطيم كل تمثال ميزان وجدته. فككت كل ميزان لعبة ..

انتزعت ظهر كل لوحة .. لا شيء ..»

نظرت إلى تماثيل الحملان المتناثرة هنا وهناك وسألتها:

«أنت من برج الحمل .. ألم تفكري في تحطيم هذه التماثيل ؟»

قالت وهي تفكر:

«لا أعتقد ... أجد في هذا نوعًا من الفأل السيئ .. لا تنس أنني اعتدت أن أعتبر هذه التماثيل معادلاً موضوعيًا لي ..»

«ربما كان الحل فيها .. »

هزت رأسها ثم اتجهت إلى غرفة داخلية وعادت حاملة مطرقة كبيرة. وقبل ان أفهم ما يحدث كانت قد انهالت على تمثال الحمل الموجود في الصالون فهشمته .. رقيقة جدًا هذه السيدة وتتصرف بأنوثة طاغية فعلاً..

ثم نهضت واتجهت إلى تمثال صغير آخر وهشمته ..

لا شيء سوى كومة من الفتات والغبار تناثر في كل مكان، لكنها كانت قد نزعت حذاءها ووقفت فوق الأريكة وانتزعت لوحة تمثل حملاً في مرج ومدت مخالبها تنزع ظهرها ..

لا شيء ..

كانت تزداد عصبية وجنونًا .. هكذا قررت أن أتركها. وخطر لي أن صور الحملان هذه غبية فعلاً.. هي أقرب إلى صور الخراف منها إلى الحملان ..

عندما جلست مع صديق عمري عصام فتحي في مكتبه، كان عاكفًا على تصميم برنامج يرسم بعض الأشكال الهندسية شديدة التعقيد وإن كان لها تأثير زخرفي جميل. قال لي إن اسمها fractal وهي نوع من الأنماط الهندسية غير التقليدية التي تحدث أشكالاً لا تقدر الهندسة التقليدية على رسمها .

لم أفهم. فقط جلست أراقبه في إعجاب بعض الوقت، ثم رحت أحكي له تلك القصة الغريبة.

راح يصغي كعادته دون أن ينظر لي، ثم راحت أنامله تدق شيئًا على مفاتيح الكمبيوتر .. سألني:

«قلت لي .. متى ولد قريبك هذا ؟»

« الأول من أكتوبر عام 1974 »

عاد يسألني:

«قلت إن كل شيء أخضر في داره ؟»

«تقريبًا ..»

«كان يحب الياقوت من بين الأحجار الكريمة ؟»

«نعم .. قال هذا مرارًا ..»

قال وهو يضحك بطريقته الخبيثة التي أعرف بها أن اللغز قد حل:

«هناك تمثال أو لوحة نمر في داره طبعًا ..»

«تمثال .. لكن كيف عرفت ؟»

«لأنني عبقري .. كل الأوراق التي تريدها موجودة في هذا التمثال ..! »

كنت أضرب كفًا على كف.. وصحت فيه كما في كل مرة:

«هل أنت ساحر ؟.. هل تتصل بالشياطين ؟»

«لا هذا ولا ذاك .. فقط أنا أستعمل هذا العضو جيدًا»

وأشار إلى رأسه ثم أردف:

«صاحبك كان يؤمن بالأبراج .. لكنها الأبراج الصينية لا الغربية. حسب هذا البرنامج الذي استعملته هو من برج النمر . هذا البرج يحب اللون الأخضر والياقوت ..»

قلت في عصبية:

«الأبراج هراء .. كلنا يعرف هذا ..»

«نعم هي هراء، لكننا قد نتصرف على أساسها في حياتنا اليومية .. نحب اللون الأخضر لأننا من برج النمر وليس العكس ..»

«وما هذه الأبراج الصينية التي تتكلم عنها ؟»

استرخى في جلسته وقال:

«هذا يرجع إلى التقويم القمري الصيني .. إنه يتكون من دورات كل دورة 60 عامًا «تنقسم الدورة إلى خمس دورات صغرى كل منها 12 عامًا .. نحن الآن في الدورة رقم 78 التي تنتهي عام 2044 .. تقول الأسطورة إن بوذا استدعى الحيوانات كلها فلم يلب النداء إلا 12 حيوانًا هي بترتيب الوصول الفأر .. ثم الثور .. ثم النمر .. ثم الأرنب .. ثم التنين .. ثم الثعبان .. ثم الحصان .. ثم الخروف .. ثم القرد .. ثم الديك .. ثم الكلب .. ثم الخنزير البري..

كل حيوان منها يحكم عامًا من الاثني عشر عامًا ..

وهذا هو الحيوان الذي يسيطر عليك ويتحكم في أفعالك .

قريبك هذا ولد في الأول من أكتوبر عام 1974 ..

أي إنه نمر ..

يؤمن الصينيون أن النمر قادر على طرد اللصوص والأشباح. مولود ليأمر وليس ليؤمر.

إنه قيادي و شجاع و يدافع عن المبادئ التي يؤمن بها. باختصار هو شخصية جذابة لكنه متسلط وعدواني.

طبعًا أنا لا أؤمن بكون الأبراج تحدد شخصية الإنسان..

لكن هذا لا يغير حقيقة أن قريبك كان يؤمن بها»

ثم أضاف:

«يعتقد الكثيرون أن هذه الأبراج أكثر دقة من الأبراج الغربية المعروفة (الجوزاء – العذراء – السرطان) .. الخ ..

ولقد حرص قريبك على أن يوحي لزوجته بأنه ميزان بينما هو في الحقيقة كان نمرًا .. سوف تجد الأوراق التي تريدها في تمثال النمر.. أنا أراهن بسمعتي على ذلك ..»

قلت له:

«لكن زوجته حَمَل .. هذا مؤكد .. الخامس من إبريل .. عام 1979 ..

هذا يعتمد على الأبراج الغربية»

ضغط على المفاتيح وقال ضاحكًا:

«بل هي خروف .. من المضحك أنك لم تلحظ الفارق في الرسم بين الخروف والحمل .. الخروف في الأبراج الصينية شخصية متقلبة مرهفة موهوبة لكنها غير واقعية تفضل الحلم على الواقع، ومتقلبة المزاج بشدة .. لا يمكن لأي شخص أن يخبرها بما يجب عمله.. من الحقائق الغريبة كذلك أن المرأة الخروف هي أسوأ شريك حياة ممكن للرجل النمر .. ! ..

لا يمكن تخيل تعايش مشترك بين الاثنين إلا لو استطاع النمر أن يعيش مع الخروف .. من حسن حظها أن قريبك لم يلتهمها !»

ثم سألني:

«هل ستخبرها الآن ؟»

قلت في خبث:

«لا أدري إن كان هذا يخرق وصية الفقيد أم لا .. لقد قال إنها ستجد الأوراق .. دعها

تتعب قليلاً وتجرب قليلاً.. هي لم تكن زوجة فاضلة على الإطلاق وقد عذبته بما يكفي. فلتتعذب قليلاً بدورها. قال لي قبل أن يموت إنها تملك ذكاء الثعالب..

أعتقد أنها ستحتاج إلى وقت أطول من اللازم في البحث بعد ما اتضح أنها أقرب إلى ذكاء الخراف !»

صدر عن دايموند بوك

1 - على حافة العلم

كتاب يبحث في ظواهر لم تذكر في أي كتاب عربي

2 - خلف أسوار العلم

أول موسوعة عربية متخصصة في ظواهر ماوراء الطبيعة

3 - خطوة الزمن

رواية من أدب الخيال العلمي

4 - و تحدث العلم !

كتاب يكشف بالأدلة أكاذيب أعتقد البشر أنها حقائق

5 - موسوعة الظلام

أول موسوعة عربية متخصصة في عالم الرعب

6 - هادم الأساطير

نحو موسوعة تكشف الحقائق

7 - الآن نفتح الصندوق

مجموعة من قصص أدب الرعب

8 - حدث في الكويت

أول كتاب يبحث في ظواهر غامضة و غريبة حدثت في الكويت

9 - ويأتي الغد

كتاب يبحث في أحداث مستقبلية

10 - قصتي مع اللوفر

دليل ساخر يشرح لك كيف تقضي 4 أيام في باريس

11 - الحافة

كتاب يبحث في حقائق علمية تقترب من الخيال